الإمام الأشعري وأطوار حياته الفكرية

د. فوازبن عبد العزيز السلمي(*)

• المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وبعد: فقد وفقني الله أن اخترت موضوع الأشعري وأطوار حياته الفكرية لجملة من الأسباب الموضوعية في نظري، ومن أهمها:

١- إنصاف الإمام الأشعري.

٢- خدمة العقيدة الصحيحة ولو من الوجهة التاريخية.

٣- علاقة موضوعي في مجال العقيدة ولو وجود ارتباط بين الموضوع والتخصص.

وبدت لي أهميته في أنه يسلط الضوء على حياة عالم من أعلام الفكر الإسلامي وبدت كذلك في أنه يبحث في المجال العقدي بكل امتياز ولا أحد يشك في أهمية العقيدة وقد تطلب إنجاز هذا العمل جهدًا شاقًا وسيرًا في طريق حفت بالمكاره جنباته، وأثناء هذا السفر حدثتني نفسي بقول امرئ القيس :

وقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

ويقول غيره :

على أنني راض بأن أترك الهوى وأخلص منه لا علي ولا ليا

لكنني عزمت عليها بأن الراحة لا يعبر إليها إلى على جسر المشقة وقد اعترضتني جملة من الصعوبات من أهمها :

١- ضيق الوقت.

٢- عدم مواءمة الدوام في المكتبات العمومية.

٣- قلة المراجع عن الموضوع وعدم بحثه سابقًا.

(*) رابطة العالم الإسلامي.

وقد سرت فيه وفق المنهجية التالية :

١- قمت بعزو الآيات إلى سورها وأرقامها.

٢- خرجت الأحاديث إلى مصادرها من كتب الحديث.

٣- أوثر ما أورده الأشعري في كتبه على ما في غيرها.

٤- لا أعتني إلا بما ورد عنه وده وأرتك أقوال غيره من أئمة المذهب وقد أذكرها إذا كان ذلك يقتضيه توضيح المتكلم عنه في نظري.

٥- قمت بإنشاء فهرس للمصادر والمراجع أذكر فيه اسم الكتاب والمؤلف والطبعة ومكانها وتاريخ الطباعة ولا أترك من ذلك شيئًا إلا إذا لم أجده.

وكان هذا كله ضمن خطة كالتالي :

- **مقدمة:** تشمل أهمية الموضوع وسبب اختياره وعوائق البحث ومنهجه وخطته.
- **تمهيد عام:** يشتمل على أربعة مباحث.
- **المبحث الأول:** في حياة الأشعري: ويشمل ثمانية أقسام.
- **المبحث الثاني:** عن طور الاعتزال في حياته.
- **المبحث الثالث:** عن الطور الوسطي في حياته.
- **المبحث الرابع:** أخذه بعقيدة أهل الحديث.

وكل هذه المباحث الثلاثة الأخيرة اشتملت على ثلاث أقسام.

- وأخيرًا **خاتمة** تبين أهم نتائج البحث المتوصل إليها.

• **تمهيد عام:**

التوحيد في عصر النبي صلى الله عليه وسلم:

لا يشك عاقل في تبليغ النبي صلى الله عليه وسلم الرسالة لهذه الأمة بل إنه لا يتصور أن يتكلم النبي صلى الله عليه وسلم في أمور من الأخلاق المتممة أو أحكام قضاء الحاجة على وجه التفصيل والحال أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يستوعبوا الركن الأول من الإسلام وما يتعلق به.

يقول النووي في شرح مسلم عازيًا إلى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله «من المحال في العقل والدين أني كون الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور قد ترك باب الإيمان والعلم به ملتبسًا مشتبهًا ولم يميز بين ما يجب لله بشأن الأسماء الحسنى والصفات العليا... الخ»[1].

و تستطيع أن تستدل من الأحداث التاريخ على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شرح التوحيد وبينه والأمثلة كثيرة نأخذ منها نقاطًا للتوضيح :

أولاً: بدء الخلق :

روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يزال الناس يسألونكم عن العلم حتى يقولوا هذا الله خلقنا فمن خلق الله ؟».

قال أبو هريرة: جاء ناس من الأعراب فقالوا: يا أبا هريرة هذا الله خلقنا فمن خلق الله؟ فأخذ حصى بكفه فرماهم به ثم قال: قوموا صدق خليلي صلى الله عليه وسلم، وفي حديث عمران بن حصين: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعقلت ناقتي بالباب فأتاه ناس من بني تميم فقال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم قالوا: قد قبلنا يا رسول الله قال: جئناك نسألك عن أول هذا الأمر قال: «كان الله ولم يكن

شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السماوات والأرض» [٢].

ثانيًا: القرآن كلام الله :

تعتبر مسألة القرآن الكريم من المسائل التي حاد فيها الكثير عن جادة الطريق والذي يمنها هنا هو لمح آراء متناثرة لكي نتوصل بها إلى معرفة موقف الصحابة مما ورد على ألسنة أئمتهم كعلي وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم. ولا مراء في حجية أقوالهم في باب التوحيد.

ومن المعروف تاريخيًا أن أول من قال بأن القرى، مخلوق الجعد بن درهم في مائة وعشرين وزيادة بعد الهجرة ثم الجهم بن صفوان.

وهذه الآراء تفيدنا موقف الصحابة من القرآن إما تصريحًا أو تلويحًا يقول الدكتور مصطفى محمد حلمي: الثابت عن هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم أ،هم قالوا إن القرآن كلام الله. صحيح أنه لم يرد لفظ غير مخلوق لأن المشكلة ظهرت بعدهم واستخدم المتكلمون هذه الألفاظ[٣].

ومن المعلوم رد علي بن أبي طالب على الخوارج حين اعترضوا عليه وقال له حكمت رجلين؟ قال: ما حكمت مخلوقا إنما حكمت القرآن

وهذا جواب صريح في نفي الخلق عن القرآن.

وقد قال عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه من حلف بالقرآن فعليه بكل آية يمين ومن حلف بحرف منه فقد كفر به أجمع[٤].

وابن عباس رضي الله عنه كان مرة ف جنازة فلما وضع الميت في لحده قام رجل فقال: اللهم رب القرآن اغفر له فوثب إليه ابن عباس فقال: «القرآن منه» وفي رواية أخرى «القرآن كلام الله وليس مربوبًا، منه خرج وإليه يعود».

ثالثًا: فهم القدر على الوجه الصحيح :

من المعروف أن القدر من ما تباينت فيه الآراء حقًا وهنا ندرك كيف كان أبو بكر رضي الله عنه مصيبًا حين يقول: أقول برأيي فإن كان صوابًا فمن الله وإن كان خطًا فمني ومن الشيطان فهذا القول يدل على تأييده لحقيقة المسؤولية الأخلاقية ونفي الجبر. كما عزر عمر بن الخطاب رضي الله عنه من ادعى أن سرقته كان بقضاء الله فلما سأله فقال :

قضى الله علي فأمر بقطع يده وضربه أسواطًا فلما استفسروا الأمر من عمر أجابهم: القطع للسرقة والجلد لما كذب.

وكذلك قال محاصروا عثمان رضي الله عنه حين رموه: الله يرميك فقال: كذبتم لو رماني الله ما أخطأني.

ولعلي رضي الله عنه توضيح شارح الفرق بين قضاء الله وأمره فقد سأله شيخ عن انصرافه من صفين: أكان المسير بقضاء الله وقدره؟ فأجابه علي رضي الله عنه: والذي خلق الجنة وبرأ النسمة ما هبطنا واديًا ولا علونا قلعة إلا بقضاء وقدر، ففهم الشيخ خطًا أن عليًا يفسر ما حدث بالجبر لذلك أسرع علي فأفهمه الإيمان بالقدر على حقيقته وأنه لا يتنافى مع حرية الإرادة عن الإنسان ومسؤوليته عن أفعال فقال له: لعلك تظن قضاء واجبًا وقدرًا حتمًا، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد ولما كانت تأتي من الله لائمة لمذنب ولا محمدة لمحسن، ولا كان المحسن أولى بثواب الإحسان من المسيء بعقوبة الذنب أولى من المحسن.. ثم أتبع هذا بقوله: إن الله تعلى أمر تخييرًا ونهى تحذيرًا ولم يكلف مجبرًا ولا بعث الأنبياء عبثًا(٥).

رابعًا: الملائكة:

وهنا تبيت الحقيقة من خلال قصة عمر وحاصلها ما ذكره جماعة من المفسرين أنه كان لعمر أرض يأتيها وكان طريقه على موضع مدارسة اليهود وكان كلما مر دخل عليهم فسمع منهم ثم إنه دخل عليه ذات يوم فقالوا: يا عمر ما من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أحب إلينا منك إنهم يمرون بنا فيؤذوننا وتمر بنا فلا تؤذينا وإنا لنطمع فيك فقال لهم: أي يمين فيكم أعظم؟ قال: الرحمن قال: فبالرحمن الذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء أتجدون محمدًا عندكم نبيًا فسكتوا فقال تكلموا: ما شأنكم والله ما سألتكم وأنا شاك في شيء من ديني فنظر بعضهم لبعض فقام رجل منه فقال: أخبروا الرجل أو لأخبرنه، قالوا: نعم إنا نجده مكتوبًا عندنا، ولكن صاحبه من الملائكة الذي يأتيه بالوحي هو جبريل وجبريل عدونا وهو صاحب كل عذاب وقتل وخسف، ولو أنه كان وليه ميكائيل لآمنا به فإن ميكائيل صاحب كل حكمة وكل غيث، قال لهم: فأنشدكم الرحمن الذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء أين ميكائيل وأين جبريل؟ قالوا جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فقال عمر: أشهد أن الذي هو عدو للذي عن يمينه هو عدو للذي عن يساره والذي هو عدو للذي عن يساره هو عدو للذي عن يمينه، وأن من كان عدوًا لهما فإنه عدو لله.

ثم رجع عمر ليخبر النبي صلى الله عليه وسلم فوجد جبريل قد سبقه بالوحي فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٦).

فقال عمر والذي بعثك بالحق لقد جئت وما أريد إلا أن أخبرك(٧).

خامسًا: محاورة النبي صلى الله عليه وسلم لوفد نجران:

وهذه المحاورة هي عبارة عن جملة من الدروس المليئة بالردود الحاسمة في المجال العقدي سواء فيما يتعلق بصفات الخالق وخلقه للمخلوقين أو ما يتعلق بالفوارق بينه وبين المخلوقين.

وقد أورد الطبري في تفسيره أن النصارى أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فخاصموه في عيسى بن مريم وقالوا له: من أبوه ؟

وقالوا على الله الكذب والبهتان: «لا إله إلا هو لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا».

قالوا: نعم.

قال: فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء.

قال: ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه؟

قالوا: بلى.

قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئًا.

قالوا: لا.

قال: ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذي كما يتغذى الصبي ثم كان يطعم ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟

قالوا: بلى.

قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟

قال: فعرفوا ثم أبوا إلا جحودًا فأنزل الله تعالى: ﴿الٓمٓ * اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[٨]

• المبحث الأول: حياة الأشعري

أولاً: اسمه ونسبه:

هو: علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، وكنيته أبو الحسن[٩].

وعلى هذا فالأشعري من سلالة الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وقد ذكر السمعاني أنه قيل له الأشعري، لأنه من ولد أبي الأشعري[١٠].

وقد طعن الأهوازي[١١] في نسبة أبي الحسن إلى جده أبي موسى الأشعري وقد تولى ابن عساكر الدفاع عن أبي الحسن الأشعري في ذلك ورد على الأهوازي قوله فقال: وأما حكايته النكرة عن بعض الأشعريين، فحكاية مفتر عن مجاهيل مفترين، ما حكي أن أحد نفاه عن أبي موسى الأشعري غير هذا الجاهل المتحامل المفتري وكيف تجاسر – لا رعاه الله – على هذه الكذبة وهو لا يعرف في الشرق والغرب إلا بهذه النسبة[١٢].

وقال أيضًا: وفي إطباق الناس على تسميته بالأشعري تكذيب لما قاله هذا المفتري.

كما ذكر الأهوازي أن أبا بشر في ترجمة الأشعري كنية لأبيه، وأنه

كني بذلك لأنه غير صحيح النسب، وقد رد ابن عساكر[١٣] ذلك أيضًا، وبين أن أبا بشر جد الأشعري واسمه إسحاق بن سالم وهو الصحيح.

وقد نص الخطيب البغدادي على ذلك فقال في ترجمته على ابن أبي إسماعيل بن أبي بشر - واسمه إسحاق بن سالم..[١٤].

والأشعري نسبته إلى أشعر وهي قبيلة مشهورة باليمن من أولاد سبأ والأشعر هو: نبت بن أدد.

قال ابن الكلبي: إنما سمي نبت بن أدد بن زيد بن يشجب بن يعرب بن زيد بن كهلان بن سبأ «الأشعر»، لأن أمه ولدته وهو أشعر والشعر على كل شيء منه[١٥].

ولم أقف على لقب للأشعر في التراجم التي بين أيدينا عنه، إلا أن ابن عساكر ذكر أنه نودي على جنازته «بناصر الدين»[١٦].

ثانيًا: موطنه ومولده:

تجمع المصادر التي بين أيدينا أن الأشعري ولد بالبصرة، وانتقل منها إلى بغداد بعد رجوعه عن الاعتزال ولم أر في ذلك خلافًا بين المؤرخين ويقولون في ترجمته: وهو بصري سكن بغداد.

أما عن تاريخ ولادته فتكاد تجمع المصادر على تحديده أيضًا فمعظمهم يثبت أنه ولد سنة ستين ومائتين، وابن عساكر - وهو مؤرخ له قيمة - يذكر ذلك عن أبي بكر الوزان ويعقب عليه بقوله: «لا أعلم لقائل هذا القول في تاريخ مولده مخالفًا»[١٧].

فإن الأدلة النقلية والعقلية تثبت أنه ولد سنة ٢٦٠ في البصرة وأنه سكن بغداد.

ثالثًا: زهده وعبادته:

أما عن زهده، فقد ساق الخطيب البغدادي بسنده إلى بندار بن الحسن وكان خادمًا لأبي الحسن قوله: «كان أبو الحسن يأكل من غلة ضيعة وقفها جده بلال بن أبي بردة بن أبي موسى على عقبه، وكانت نفقته في كل شهر سبعة عشر درهمًا[١٨]، وقد ذكر الدكتور عبد الرحمن بدوي قيمة الدرهم في ذلك الوقت والناظر في ذلك يتبين له مدى تقلل الأشعري من الحياة الدنيا.

وقال فيه الذهبي: " كان قانعًا متعففًا»[١٩].

وأما عن عبادته، فقد ساق ابن عساكر بسنده إلى أبي عمران موسى بن أحمد الفقيه قوله: «سمعت أبي يقول: خدمت الإمام أبا لحسن بالبصرة سنتين، وعاشرته ببغداد إلى أن توفي ــ رحمه الله ــ فلم أجد أورع منه ولا أغض طرفًا، ولم أر شيخًا أكثر حياءً منه في أمور الدنيا، ولا أنشط منه في أمور الآخرة ومن طريف ما يذكر عنه أنه كان مع زهده وعبادته فيه دعابة ومزح كبير»[٢٠].

رابعًا: أسرته وأثرها في تكوين شخصيته:

ذكرت سابقًا أن أبا الحسن من سلالة الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وكان من فقهاء الصحابة وقرائهم[٢١]، وقد أثنى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم عليه وعلى قومه، وذلك فيما أخرجه الحاكم بسنده إلى سماك بن حرب قال: " سمعت عياض الأشعري يقول: لما نزلت «فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه»، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هم قومك يا أبا موسى، وأومأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده إلى أبي موسى الأشعري»[٢٢].

وكان لأبي موسى وأحفاده من بعده مجهود ضخم في رعاية أمور المسلمين وخدمتهم، وقد كان أبو موسى نفسه أحد الحكمين بين علي ومعاوية رضي الله عن الجميع، ولا شك أن هذا الأصل الطيب له أثر في ثمرته الطيبة.

أما عن أبيه، فقد ذكر أبو بكر بن فورك أنه كان سنيًا جماعيًا حديثيًا [٢٣] وأنه أوصى الأشعري عند وفاته إلى زكريا بن يحيى الساجي[٢٤] وهو إمام في الفقه والحديث.

والناظر في ذلك يقول: بأن الأشعري سينهج نهج أبيه وأستاذه المحدث على الدوام، ولكن شاءت إرادة الله أن يموت أبوه، وهو صغير السن وقت أن كان يتلقى دروسه الأولى ولم تحدد لنا المصادر تاريخ وفاته.

ولما مات أبوه تزوجت أمه برجل من كبار رجال الاعتزال وهو أبو علي الجبائي[٢٥]، ومن ثم تأثر به الأشعري ونحا نحو المعتزلة في الأمور الاعتقادية بل أنه برع فيها لدرجة أن شيخه وزوج أمه الجبائي كان ينبه عنه في المجالس والدروس.

ولقد كان لهذا الاتجاه أثره البالغ في هضم الأشعري لآراء المعتزلة الكلامية وإحاطته بها، ومن ثم تمكن - بعد رجوعه عنها - من الرد عليها ونقدها نقد الخبير المتمكن العارف بأخبارها وأوزارها، كما كان لهذه النشأة أثر سيء للغاية وهو صرف الأشعري عن الحديث وعلومه ولو كان له فيه ما لغيره من الأئمة لكان له شأن آخر.

خامسًا: مكانته العلمية وثناء الناس عليه:

لقد برع الأشعري في معظم العلوم والفنون، وكتب فيها كتابات قيمة تدل على عمق بحث وسعة أفق.

وإذا استعرض الباحث مؤلفاته يجد أنه كتب في الجدل ورد على أرسطو في كتابه السماء والعالم والآثار العلوية، كما رد على الدهرية والمجوس والمشبهة والخوارج والرافضة والقدرية وبرع في الرد على المعتزلة، بل أنه ألف كتابًا رد فيه على نفسه وقت أن كان معتزليًا كما أنه كان مؤرخًا للعقائد من الصف الأول، وحسبنا في ذلك كتابه: " مقالات الإسلاميين " كما أن له إلمامًا بالسير والأخبار، وقد ألف كتابًا خاصًا بأفعال النبي صلى الله عليه وسلم.

ومما يدعو إلى العجب أن الرجل كانت له قدم راسخة في علوم الشريعة فقد كتب في القياس والاجتهاد وألف في خبر الواحد والإجماع، ورد على ابن الراوندي في إنكاره التواتر، وله كتاب ضخم في التفسير.

وهذا يدل على علو منزلته وعظيم قدره ودفع أهل العلم والفضل إلى الثناء عليه، وإليك بعض ما قيل في ذلك :

قال الخطيب البغدادي: «أبو الحسن الأشعري المتكلم صاحب الكتب والتصانيف في الرد على الملاحدة وغيرهم من المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج وسائر أصناف المبتدعة»(٢٦).

وذكر بسنده عن أبي بكر الصيرفي أنه كان يقول: «كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله تعالى الأشعري فحجزهم في أقماع السمسم»(٢٧).

وقال ابن خلكان: «هو صاحب الأصول والقائم بنصرة مذهب السنة وإله تنسب الطائفة الأشعرية، وشهرته تغني عن الإطالة في تعريفه »(٢٨).

وقال ابن العماد: «ومما بيض به وجوه أهل السنة النبوية وسود به

رايات أهل الاعتزال والجهمية فأبان به وجه الحق الأبلج، ولصدور أهل الإيمان والعرفان أثلج مناظرته مع شيخه الجبائي التي بها قصم ظهر كل مبتدع مراء»[٢٩]، ثم ساقها نقلاً عن ابن خلكان.

كما نقل ابن عساكر نقولاً كثيرة عن من تقدمه من العلماء في مدح الأشعري والثناء عليه بما يثبت رجوعه إلى مذهب السلف أهل السنة والجماعة، وهكذا فعل السبكي في الطبقات.

سادسًا: مؤلفاته:

سبق وأن ذكرت مكانة الأشعري العلمية، وما من الله به عليه من سعة الأفق التي جعلته يكتب بعمق وأصالة في معظم العلوم والفنون

ومؤلفات الأشعري كثيرة للغاية، ولم يتمكن الدارسون والباحثون من العثور إلا على جزء قليل منها بل إننا إذا اعتبرنا ما ذكره ابن عساكر في التبيين والزركلي في الأعلام من أن مؤلفات الأشعري بلغت ثلاثمائة مصنفاً سنقول إننا لا نعرف الكثير عن أسماء مؤلفاته فضلاً عن محتواها.

وقد ذكر ابن حزم أن مؤلفات الأشعري بلغت خمسة وخمسين مصنفاً ورد ابن عساكر هذا القول وقال: قدر ترك من عدد مصنفاته أكثر من النصف وذكر أبو بكر بن فورك مسميات تزيد على الضعف، وقال السبكي: ذكر ابن حزم ما وقف عليه في بلاد المغرب[٣٠].

ولقد قام بعض المسلمين والمستشرقين بدراسات واسعة عن تراث الأشعري الضخم الذي خلفه للمسلمين[٣١] وذلك بتحقيقه وإخراج ما عثر عليه منه، أو بالكلام حول ما لم يتيسر العثور عليه كما فعل الدكتور: «عبد الرحمن بدوي» في كتابه مذاهب المسلمين.

وآخر ما قيم به من دراسة لكتب الأشعري ما قامت به الدكتورة «فوقية حسين» في مقدمتها لكتاب الإبانة.

وفي الحقيقة أنها قامت بجهد تشكر عليه في هذا البـاب حيـث أثبتـت تعليقات الباحثين من مسلمين ومستشرقين حول مصنفات الأشعري.

وسأقوم بسرد مؤلفات الأشعري ذاكرًا ما تمس الحاجة إلى ذكره، وذلك مثل التعريف ببعض محتويات كتبه أو بيان صحة نسبتها إليه وذلك في آخر البحث لمن يريد الاطلاع عليها.

وأولى ما يمكن أن نعتمد عليه في ذلك ما ذكره الأشعري نفسـه عـن مؤلفاته في كتابه " العمد في الرؤية " والذي ساق فيه أسماء كتبه حتى سـنة عشرين وثلاثمائة، كما ذكر ابن فورك، وعقب عليها – أي ابـن فـورك – بذكر ما جاء بعد هذه السنة من مؤلفات للأشعري حتى تـاريخ وفاتـه، ثـم استدرك ابن عساكر على ابن فورك ثلاث مؤلفات أخرى لم يذكرها.

سابعًا: شيوخه وتلاميذه:

يعتبر الجبائي من أوائل شيوخ الأشعري وقد تقدمت ترجمته ونعـرض لأهم شيوخه فيما يلي :

– **أبو خليفة الجمحي**: هو الفضل بن الحباب الجمحي البصري مسـند العصر كان محدثًا متقنًا ثبتًا إخباريًا عالمًا روى عن مسـلم بـن إبـراهيم وسليمان بن حرب وطبقتهما وتوفي عام ٣٠٥هـ[٣٢].

– ابن سريج: هو أحمد بن سريج القاضي أبو العباس البغدادي تـوفي سنة ٣٠٦هـ[٣٣].

– **الحافظ زكريا الساجي** : هو الإمام الحافظ محدث البصرة أبو يحـى زكريا بن يحيى بن عبد الرحمن الساجي، توفي سنة ٣٠٧هـ[٣٤].

وعنه أخذ الأشعري تحرير مقالة أهل الحديث وروى عنه بعض الأحاديث.

- **أبو إسحاق المروزي** : هو إبراهيم بن أحمد بن إسحاق المروزي الفقيه الشافعي إمام عصره في الفتوى والتدريس أخذ الفقه عن أبي العباس بن سريج وبرع فيه وانتهت له الرياسة بعد ابن سريج، توفي ٣٤٠هـ[٣٥].

أما تلاميذه، فقد اهتم ابن عساكر من بين المؤرخين الذين كتبوا عن الأشعري بالحديث عن تلاميذه والآخذين عنه واستدل بذلك على عظم منزلته وجلالة قدره، وقد قسم ابن عساكر الآخذين عنه إلى خمس طبقات بدأ فيها بأصحابه الذين أخذوا وأدركوه واعتبرهم الطبقة الأولى ثم أتبع ذلك بمن أخذ عن تلاميذه وهم الطبقة الثانية وهكذا.

ولكن المهم هنا أن أنبه إلى أن الذين ذكرهم ابن عساكر ليسوا جميعًا قائلين بمذهب الأشعري الأخير بل ويخالفونه في أقواله الكثير وسأذكر هنا من أخذ عنه وهم كما يلي :

١- أبو عبد الله مجاهد البصري
٢- أبو الحسن الباهلي البصري
٣- أبو الحسين بندار بن الحسن الشيرازي
٤- أبو بكر القفال الشاشي.
٥- أبو سهل الصعلوكي النيسابوري
٦- أبو زيد المروزي
٧- أبو عبد الله بن خفيف الشيرازي
٨- أبو بكر الجرجاني المعروف بالإسماعيلي.
٩- أبو الحسن عبد العزيز بن محمد بن إسحاق الطبري

١٠- أبو جعفر السلمي البغدادي

١١- أبو عبد الله الأصفهاني

١٢- أبو محمد القرشي الزهري

١٣- أبو بكر البخاري المعروف بالأودني الفقيه

١٤- أبو منصور بن حشاد النيسابوري

١٥- أبو علي الفقيه السرخسي

١٦- أبو الحسين بن سمعون البغدادي

ثامنًا: وفاته :

الأرجح عندابن كثير والذهبي والسبكي وجزم به ابن عساكر أنه توفي سنة ٣٢٤ أربعة وعشرين وثلاثمائة[٣٦].

• المبحث الثاني: طور الاعتزال

أولاً: المعتزلة وأبو الحسن:

أطلق هذا المصطلح على جماعة اعتزلت حلقة الحسن البصري وأصبحت فيما بعد جماعة كبيرة لها علماؤها وأصولها وتنظيراتها وانقسمت فيما بعد انقسامات لم يجمع بين أطرافها إلا أصول خمسة سيأتي الكلام عنها في المبحث الآتي إن شاء الله.

هذه هي الطائفة التي احتضنت الشيخ أبا الحسن الأشعري ومكث معها أربعين سنة وذهب عنها كما سيأتي في مبحث رجوعه عن الاعتزال.

ولفهم هذا الطائفة سيكون الكلام عليها من نقطتين :

عن أهم رجالها والخلفية أو الوسائل التي تتحرك بها هذه الطائفة ممثلة في رجالها لفهم النصوص الشرعية والحكم عليها.

أولاً: أهم رجالها :

- **واصل بن عطاء** : ولد واصل سنة ٨٠هـ ويكنى أبا حذيفة وهو مؤسس مذهب المعتزلة حيث كان طالبًا في مدرسة الحسن البصري واختلف معه في شان مرتكب الكبيرة فقال واصل هو في منزلة بين المنزلتين فقال له الحسن البصري اعتزل عنا فسموا معتزلة بذلك.

ومن مؤلفات واصل بن عطاء:

١- كتاب معاني القرآن

٢- كتاب التوبة

٣- كتاب الخطب في التوحيد والعدل

٤- كتاب المنزلة بين المنزلتين (٣٧)

- **عمر بن عبيد:** كان من أهل الحديث إلى أن انفصل عن البصري وصحب واصل.

- **أبو هذيل:** هو محمد بن الهذيل بن عبد الله العلاف رائد التأليف في علم الكلام عند المعتزلة توفي سنة ٢٢٦ وقيل ٢٢٧ وقيل ٢٣٥.

- **النظام** : هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار بن هانئ البصري كان أنبه تلاميذ أبي الهذيل العلاف وكان من منكري الإجماع فينتقد المفسرين من تلاميذ عبد الله بن عباس رضي الله عنه توفي سنة ٢٢٠هـ.

- **ابن الراوندي:** والأصل فيه فارسي وكان في أول الأمر من أتباع بشر المعتمر المعتزلي، وكانت تأليفه في مذهب المعتزلة ثم اتهم بالزندقة فطرده المعتزلة فهاجمهم ثم هاجم الإسلام أخيرًا توفي سنة ٢٤٥هـ.

- **ثمامة بن أشرف:** هو أبو معن النميري أحد مشاهير المعتزلة

واكتسب مكانة عالية عند الخلفاء ويطلق على أتباعه الثمامية توفي سنة ٢١٣هـ، ترك بعض الردود على الإمام أبي حنيفة.

-**الإسكافي:** هو أبو جعفر محمد بن عبد الله من مشاهير المعتزلة من أتباع جعفر بن حرب يقال إنه ألف سبعين كتابًا في علم الكلام كان الخليفة العباسي المعتصم يجله ويقدره توفي سنة ٢٤٠هـ.

ثانيًا: الخلفية الكلامية:

إن دراسة رجال المعتزلة وعلمائها يقطع الشك باليقين أن ثمة خلفية كلامية هائلة تحرك العقول لترمي بها إلى مزاحمة النقل إذا لم تتجاوز بها إلى إقصائه في حال الصدام المزعوم وهذا الفن أي علم الكلام أصبح كغيره من الفنون مستقلاً له رجاله المبرزون فيه ولفهم المعتزلة لا بد من فهمه هو أكثر وسيكون الكلام عن تسميته بهذا الاسم وتعريفه وسبب ظهروه وموضوعه.

١. تسميته بهذا الاسم:

سمي علم الكلام بهذا لاسم لأنه في الأصل وضعت أبوابه وفصوله الكلام على كذا فأخذ التسمية بهذه الطريقة وقيل سمي بعلم الكلام لأنه يورث القدرة على الكلام في الشرعيات، وثمة تسميات أخر من أهمها :

- أصول الدين
- الفقه الأكبر
- علم النظر والاستدلال
- علم التوحيد والصفات

٢. تعريفه :

يقول المؤرخ الكبير عبد الرحمن بن خلدون عن علم الكلام: «وهو يتضمن الحجاج على العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقاد عن مذهب السلف وأهل السنة»(٣٨).

وهو هنا يذكر أنه بواسطة هذا العلم يتم إثبات الحجج ورد الشبه لكن لم يلبث أن يذكر أن علم التوحيد مما لا مجال للعقل فيه، ومن المعلوم أن علم الكلام مداره على العقل أيضًا: غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقائق النبوة وحقائق الصفات الإلهية.

وهذا الكلام في غاية الروعة والحسن وليس من باب التنقيص من العقل بل هو ميزان صحيح ومستقيم لكن في مجاله خاصة أما إذا قطع عن السياق الذي جعل فيه فإنه لن يكون مستقيمًا ويوضح بالمثال حيث قول: «ومثال ذلك من رأى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال»(٣٩).

٣. سبب ظهوره:

لم تكن الأساليب العقلية بهذه الطريقة معروفة في صدر هذه الأمة ولكنها نشأت بعد ذلك نتيجة لجملة من العوامل أهمها :

أ- التوقف عن نشر الإسلام في البلاد فوجدت النفوس فسحة زائدة من الفراغ بدأ الناس يجادل بعضهم بعضًا في افتراضات لا طائل من ورائها.

ب- ضعف القوة المناعية عند الأمة: وذلك يتمثل في انقراض عصر الصحابة والتابعين وفي تحول الأمة من الخلافة الراشدة إلى الملك

يقول الدكتور مصطفى حلمي: «وبانقضاء دولة الخلفاء الراشدين وتولي زمام الحكم من هم أقل منهم مرتبة أكثر في أصول الدين»(٤٠).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " إن القدرية لم يجرؤوا على الكلام في الذات أو الصفات الإلهية إلا في آخر عصر التابعين أو أواخر الدولة الأموية وكانوا قبل ذلك يقتصرون على الأحكام والوعد والوعيد.

ج- ظهور الترجمة: وبدأت مع خالد بن يزيد بن معاوية ولكن ترجمته كانت مقتصرة على بعض المسائل العلمية كالكيمياء يقول عنه الحافظ جلال الدين السيوطي عازيًا القول إلى القيرواني: «رحم الله بين أمية لم يكن فيهم قط خليفة ابتدع في الإسلام بدعة»(٤١).

ولكن الترجمة بدأت حقيقة مع بني العباس حيث امتزجوا كثيرًا مع حضارة الفرس واشتهرت مقالة شيخ الإسلام ابن تيمية عن المأمون حيث يقول: «ما أظن أن الله يغفل عن المأمون ولا بد أن يقابله على ما اعتمده مع هذه الأمة من إدخاله هذه العلوم».

وتشير بعض الروايات إلى أن المأمون هو الذي أرسل إلى صاحب جزيرة قبرص طالبًا خزانة الكتب اليونانية فأشار عليه خواصه بإجابة المأمون بهدف إحداث الفتنة بينهم (٤٢).

د- موضوعه: من أهم المسائل التي يتناولها المتكلمون في مناظراتهم تدور حول الآتي:

- الرد على الدهريين القائلين بقدم العالم بواسطة إثبات الحدوث للجسم.
- تنزيه الله عما يصفه به اليهود والنصارى والرد على المجوس القائلين بتعدد الآلهة.
- إثبات قدرة الله وإرادته وأنه حي قيوم وأنه واحد.
- الكلام على كلام الله عز وجل هل هو مخلوق أو لا وعلى رؤية الله عز وجل.

- النظر في أفعال العباد هل يخلقها الله أم العبد ومسألة الاستطاعة ومحلها هل قبل الفعل أو بعده.
- الكلام على مرتكبي الكبيرة ومن مات على ذلك هل يخلد في النار.
- الاستدلال على النبوة عمومًا ردًا على منكريها كالبراهمة أو خصوصًا كإثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.
- الكلام على الإمامة هل تثبت بأهل الحل والعقد بناء على أنها قضية مصلحة أو لا تثبت إلا بالنص إلى غير ذلك من مسائله

هذه هي المعتزلة التي كان الشيخ أبو الحسن الأشعري يدور في فلكها وكان من أبرز منظريها بمنهجه الكلامي المفرط وشاء له القدر أن لا تكون إلا طورًا واحدًا في حياته ولحسن الحظ أنه كان أول أطوار حياته.

ثانيًا: أصول المعتزلة :

الأصل الأول: التوحيد :

ويرتكز هذا الأصل على إنكار صفات الله تعالى وهم يجمعون على أن الله واحد ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وأنه ليس جسمًا ولا عرضًا ولا جوهرًا ولا يحيط به مكان ولا يجري عليه زمان ولا تجوز عليه المماسة ولا يوصف بشي من صفات الخلق ولا يجوز عليه الحلول في الأماكن وكل ما تصور بالوهم أو خطر بالبال فغير مشبه له هكذا يقولون.

وخلاصة هذا الأصل أنهم يقرون بوجود الله وبوحدانيته ولكنهم غلوا في هذا الباب غلوًا أدى بهم إلى نفي صفات الله مخافة الوقوع في الشرك على حد زعمهم وأنكروا رؤية الله تعالى في الدنيا والآخرة وتفرع من هذا القول بخلق القرآن.

فالشرك الذي يخافونه هنا هو تعدد القديم كما يقولون، وعليه فهم يقولون عالم بذاته وقادر وسميع وبصير بذاته، هذا من أبطل الباطل لأنه رد للنقل والعقل أما النقل فلقوله تعالى: ﴿أنزله بعلمه﴾.

فالله تعالى جعل لنفسه علمًا زائداً على ذاته وأما العقل، فمن المعلوم أن الوصف يدل على شيئين ذات ومعنى فالضارب تدل على ذات وتدل على معنى هو الضرب، وأن من لم يقم به هذا المعنى لا يشتق له منه وصف، يقول العلامة سيد عبد الله العلوي في مراقي السعود :

وعند فقد الوصف لا يشتق وأعوز المعتزلي الحق(٤٣)

فإبطال هذه الصفات المسطرة في الوحي يؤدي إلى ضعف الإيمان وتجفيف منابعه فالغرض من هذه الصفات تنبه البشر إلى الله وإلى الرغبة فيه لقضاء الحوائج خلافًا لما كانت عليه الجاهلية التي تعطي الجماد سخاء ما ليس له من النفع والضر لتكون بذلك على طرفي نقيض مع قدماء الفلاسفة كأرسطو حيث جعلوا مبدأ الوجود ذاتًا مجردة من كل وصف يقول مصطفى حلمي: «فلسفة أرسطو التي تصف المبدأ الأول بواجب الوجود ولكنها ذات مجردة من كل وصف ولا دخل له في شان من الشؤون فسدت بذلك باب الدعاء والالتجاء بل قطعت كل خيط من الأمل والرجاء لدى بني آدم إذ لا جدوى من إيجاد أية علاقة بينهم وبين المبدأ الأول»(٤٤).

وتفسير التوحيد بهذا التفسير يؤدي إلى تعطيل شطر التوحيد وهو صفات الله فيمن عرف الذات والمعنى ليس كم عرف الذات فقط.

الأصل الثاني: العدل:

ويقصدون بهذا الأصل إرجاع كل عمل إلى الإنسان لتفسير مظاهر

الشرك ونسبتها إلى الإنسان وما لا خلاف فيه أن جميع المسلمين يؤمنون بأن الله متصف بالعدل لكن المعتزلة فسروا العدل تفسير خاصًا لينسجم مع ما قرروه من عقائدهم.

ومقتضى هذا التفسير أن الله يجب عليه الصلاح والأصلح وهذا ناتج عن مسألة التحسين والتقبيح العقليين كما تفرعت مسألة أفعال العباد فقالوا يمتنع عليه إرادة الشر والمعاصي والقبائح، وقالوا أيضًا يريد ما لا يقع ويقع مالا يريد فزعموا أنه أراد من الكافر الإيمان وزعموا أن أكثر ما عليه عباد الله خلاف مراده جل جلاله.

ونلحظ هنا أنهم يحاولون تنزيه الله فأدى بهم ذلك إلى الدخول في متاهات لا نهاية لها والسبب هو الخلط في المفاهيم وعدم التمييز بين القدر والرضا والمحبة ، والمحبة لا تكون إلا في الخير لكن الإرادة قد تكون في غيره، ذلك أن الإرادة تنقسم قسمين: إرادة شرعية، وإرادة كونية، وهي التي يقول الله فيها: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (٤٥).

والإرادة الشرعية ترادف المحبة والرضا ويترتب على ما قرره هؤلاء تعطيل الإيمان بالقدر وذلك ركن من أركان الإيمان كما هو معلوم والله يجري على العبد أمورًا لأجل الابتلاء كما قال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾(٤٦).

والآيات في هذا المجال كثيرة ويبتليه لأجل إزالة الذنب والمعصية إن هو صبر والدليل ما رواه مصعب بن سعد عن أبيه قال قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاءً قال الأنبياء ثم الأمثل ثم الأمثل، يبتلى الرجل على حسب

دينه، فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاءه وإن كان في دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة [٤٧].

وهذه قاعدة جديدة ينبني عليها فهم أوامر الله فهمًا دقيقًا.

الأصل الثالث: الوعد والوعيد:

ويقوم هذا الأصل كما يقول الشهرستاني: على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض وإذا خرج من غير توبة من كبيرة استحق الخلود في النار ولكن عقابه يكون أخف من عقاب الكفار[٤٨].

ويختلفون مع أهل السنة فأهل السنة يرون إمكانية تخلف الوعيد لأنه حق لله تعالى بل إنه تعالى أخبر في كتابه أن يعفوا عن كثير ويرون التوبة من موانع الوعيد وعمل الحسنات لقوله تعالى ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾[٤٩]، وإقامة الحدود من الموانع.

أما الوعد فلا يجوز تخلفه لأن الله تعالى أخبر أنه لا يخلف الميعاد.

الأصل الرابع: المنزلة بين المنزلتين:

وهذا الأصل كان السبب المباشر في التمايز بينهم مع أهل السنة ويقوم على تحديد هوية مرتكب الكبيرة وهم بهذا التصنيف يسلكون مسلكًا وسطًا بين أهل السنة والخوارج فلا هم كفروه كما فعل الخوارج فيستحلون دمه وماله بل جعلوه بين الإيمان والكفر.

الأصل الخامس: الأمر بالمعروف النهي عن المنكر:

وهذا الأصل يجتمعون فيه مع غيرهم وهو يقتضي أن يجاهد المؤمن في

إثبات الحق وإزهاق الباطل، ووجه ذكره في أصولهم أنهم قرروا هذه الأصول وجعلوه من ضمنها.

ثالثًا: رجوع أبي الحسن عن الاعتزال:

يمكن أن يصدق على الشيخ أبي الحسن الأشعري مع المذهب الاعتزالي ما يقوله الشاعر :

عرفت هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا

لكن تمكن المذهب الاعتزالي لم يمنع من رجوع الشيخ أبي الحسن ومن يمنع فضل الله جل جلاله من أن يصرف القلوب إلى الهداية.

وكان رجوعه عن المعتزلة من باب المتواتر الذي لا يقبل الرد بوجه ولا يمكن أن يقع فيه خلاف وذلك عائد إلى مكانة الأشعري العلمية وأعظم بها من مكانة.

ويذكر عنه أنه قال: وقع في صدري بعض الليالي شيء مما كنت فيه من العقائد فقمت وصليت ركعتين وسألت الله أن يهديني الطريق المستقيم ونمت، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم فشكوت إليه(٥٠).

ومفاد هذه الشكوى أنها أدت إلى أمر النبي صلى الله عليه وسلم له أن يتبع سنته وأن ينصرها فانتبه وبدأ بعد ذلك بمعارضة علم الكلام.

على كل حال من الطبيعي أن لا يمر هذا الحادث بمستوى رجوع الشيخ أبي الحسن الأشعري دون إرهاصات لذلك يروي ابن عساكر عن الشيخ أبي الحسن أنه قال: «بينا أنا نائم في العشر الأول من رمضان رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا علي انصر المذاهب المروية عني فإنها الحق فاستيقظ ودخل عليه أمر عظيم ولم يزل مفكرًا مهمومًا لهذه الرؤيا حتى كان في

العشر الأواسط فتجددت له رؤية النبي صلى الله عليه وسلم فقال له ما فعلت فيما أمرتك به.

فقال له قد خرجت للمذاهب المروية وجوهًا يحتملها الكلام لكن النبي صلى الله عليه وسلم قال له انصر المذاهب المروية عني فإنه حق »، وهكذا يذكر أنه بقي على همه وإن كان قد انصرف إلى القرآن والحديث حتى تجددت له الرؤيا ليلة سبع وعشرين وقال له النبي صلى الله عليه وسلم إنه إنما أمره بنصرة المذاهب الصحيحة(٥١).

وعلى كل حال فقد رجع أبو الحسن وأشهد المسلمين على ذلك في مسجد البصرة يوم الجمعة.

ويقال إنه وقف أمام أهل المسجد في البصرة وأشهدهم على رجوعه وأنه أسلم من جديد بعد أن صعد المنبر ومعه شريط شده في وسطه فقطعه فقال: «اشهدوا علي أني كنت على غير دين الإسلام وأني قد أسلمت الآن وأني تائب مما كنت فيه من القول بالاعتزال».

• المبحث الثالث: في طوره الوسطي

أولاً: نشأة هذا المذهب:

يقول شيخ الإسلام بن تيمية: «وأبو الحسن الأشعري لما رجع عن مذهب المعتزلة سلك طريقة ابن كلاب ومال إلى أهل الحديث والسنة».

فمن هو ابن كلاب؟ إنه رجل من عمالقة الفكر الإسلامي الذين يقفون بين خط الاعتزال وخط أهل السنة، مع انه أقرب إليهم جدًا وقد كان ظهر في أواخر عصر أبي عبد الله الإمام أحمد بن حنبل، وكانت له تصانيف كثيرة في الرد على المعتزلة، ويقول عنه ابن تيمية إنه من متكلمة الصفات.

وعلى العموم فالرجل كان صاحب مدرسة لها مناهجها وأتباعها فالسؤال الوجيه الوارد ولماذا الأشعرية بدل الكلابية، ويقل اليوم من يعلم عن أبي محمد عبد الله بن سعيد، وقل من لا يعلم عن أبي الحسن الأشعري مع أنه لم يكن له من الأمر إلا أنه أخذ بمذهبه وهذا الاعتراض يجاب عنه من خلال النقاط التالية :

أولاً: يعتبر العامل الظرفي في الذي برز إبانه ابن كلاب غير مشجع ذلك أن هذا الظرف كان يلف في طياته أحداثًا من قبيل محنة الإمام أحمد بن حنبل مع المعتزلة.

ولا يفوتني هنا أن أذكر أن ابن كلاب كان أيضًا يشارك في هذا الصراع مع المعتزلة بردوده الكثيرة عليهم ولكنها كانت في قالب كلامي وجدلي ربما يكون هو الذي حرمه من الظهور كشيخ من شيوخ أهل السنة، إذ كان علماء الحديث يحذرون منه غاية التحذير.

بينما نجد أن الشيخ أبا الحسن كان قد جاء بعد هدوء العاصفة، وقد كان ابن كلاب له كالطريق وقام بالرد تلو الرد على أصحاب الاعتزال فتهيأت الأوضاع لأن ينشأ هذا المذهب بقيادة أبي الحسن الأشعري من جديد فلم يلبث حتى شب عليه الصغير وشاب عليه الكبير.

ثانيًا: مكانة أبي الحسن العلمية والفكرية: تساعده على نسبة المهذب إليه فهو لم يكن مثل غيره من الطلاب الذي يأخذون الدرس فيراجعونه ويحفظونه من غير نقص ولا زيادة بل إن الناظر المتأمل يدرك أن أخذه بهذا المنهج لم يكن من باب التقليد وإنما هو من باب التوافق، ومعرفة أبي الحسن لم تكن صورة طبق الأصل لابن كلاب ومدرسته واتباعه له في أصل معين لا يعني أنه في جميع آرائه وأقواله كان متابعًا له[٥٢].

وهذه الظاهرة – أي المخالفة – لم تكن مقتصرة على أبي الحسن فكم هي المخالفة التي شاعت بين كل المدارس الفكرية لأنها تقوم على العقل وهذا يختلف من شخص إلى آخر بحسب مستواه العقلي ومن المعلوم أن التفاضل بين العباد واقع في كل شيء.

ثالثًا: نضال الأشعري من المعلوم أن الأشعري له رصيد من النضال لا يستهان به ومعرفته بالتفاصيل والجزئيات من الأهمية بمكان، ويكفيه انتقاله من المذهب الاعتزالي وهذا التحول قدره وتأثيره يتبع لقدر وتأثير صاحبه وقد مر معنا أن أبا الحسن له مكانة خولته أن ينوب عن شيخه في الدروس والمناظرة وفي مجال التأليف يقول هو عن بعض كتبه في طور الاعتزال إنه لم يؤلف لهم كتاب مثله(٥٣).

والمفاجأة إذا وقعت بهذا المستوى تنسى في الكثير من الجزئيات كتمسكه ببعض القضايا الكلامية التي كانت خطًا احمر فاصلاً بين منهج أهل الحديث مع مناهج غيرهم.

فالأنظار في هذا لحالة تنحصر في رد العدو الأكبر ألا وهو المعتزلة ولا أحد ينكر فضل الرد على المعتزلة خاصة أنه في عصر عزهم.

رابعًا: شهرة الرجل: اشتهر أبو الحسن من الشهرة ما لم يصل إليه بن كلاب ومن أسبابها مؤلفاته ورسائله فمؤلفاته تزيد على ثلاثمائة كتاب.

خامسًا: دور تلاميذه: معرفة أبي الحسن وازدحام الطلاب عليه ساعد على جعله صاحب المذهب وهذا دور لا يستهان به فقد تناولوا منهج هذا الشيخ بحثًا وأتقنوه دراسة وكافحوا عنه وردوا على المخالفين، يقول القاضي عياض عن الأشعري: " قلما كثرت تواليفه وانتفع بقوله وظهر لأهل الحديث

والفقه ذبه عن السنن والدين تعلق بكتبه وأخذوا عنه وتفقهوا في طريقته إلى أن يقول: فأهل السنة من أهل المشرق والمغرب بحجته يحتجون وقد أثنى عليه غير واحد منهم وأثنوا على مذهبه وطريقه(٥٤).

أسباب انتشار هذا المذهب :

انتشر هذا المذهب في العالم الإسلامي كانتشار النار في الهشيم حتى إنه في بعض الأزمنة استقر أنه هو مذهب أهل الحديث.

والذي انتشر في غالب الأقطار هو المذهب الأوسط في حياته وهنا يسأل ولماذا ينتشر هذا المذهب في أنحاء العالم الإسلامي مع أنه تؤخذ عليه بعض المآخذ وهو في نفس الوقت له مذهب يتبناه ويوافق فيه جماعة الحديث ومن أهم الأسباب التي أدت إلى الأخذ بهذا المذهب ما يلي :

١- كثرة الحق الذي يقول به هذا المذهب.

٢- مكانة أصحابه الذين ينتمون إليه العلمية فقد أثروا المعارف الإسلامية وخاصة العقلية كالدراسات اللغوية من بلاغة ونحو وتصريف والدراسات الأصولية والمنطقة والفقهية.

٣- في المقابل عجز وتفريط المنتمين إلى أهل السنة والحديث تارة يروون ما لا يعلمون صحته وتارة يكونون كالأميين الذي لا يعلمون الكتاب إلا أماني ويعرضون عن بيان دلالة الكتاب والسنة على حقائق الأمور والعهدة في هذا على شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

أما عن سبب كثرة أصحابه فهذه لا تدل على حق من غيره كما قال الشاعر :

تعيرنـــا أنـــا قليـــل عديـــدنا فقلـــت لهـــا إن الكـــرام قليـــل

٤- أفول نجم المعتزلة وواكب هذا ظهور المذهب الأشـــعري كخصـــم لدود لمذهبهم.

٥- نشوء هذا المهذب في حاضرة العالم الإسلامي بغداد ولا شـــك أن أنظار الناس تتجه في الغالب حيث كان الملك ودار الفقهاء كان محال أنظار الفقهاء ليسمعوا الروايات أو يحدثوا بمروياتهم.

فلما نشأ هذا المذهب في بغداد كثر الآخذون به والناقلون له إلى شـــتى الأماكن.

٦- تبني بعض الوزراء له: من حسن حظ المـــذهب أن تبنـــاه بعـــض الأمراء والوزراء فازداد الناس رغبة فيه ومن أبرز هؤلاء ما يلي :

- **الوزير نظام الملك الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي:** الذي تولى الوزارة لسلاطين السلاجقة وقد تولى الوزارة مدة ثلاثين سنة.

ولقد قال عنه الدكتور عبد الرحمن بن صالح المحمود: «وكـــان نظـــام الملك معظمًا للصوفية وللقشيري والجويني وغيرهما من أعلام الأشعرية وقد كانوا يلقون دروسهم في هذه المدارس على الطلاب ويدرسون أصول العقيدة الأشعرية فكان لذلك دور عظيم في انتشار المذهب»(٥٥).

- **نور الدين محمود بن زنكي:** الذي جاهد الصليبيين وقد ولد سنة ٥١١ ومن آثاره أنه بنى دار الحديث في دمشق ووكل مشيختها إلى الحـــافظ بـــن عساكر وهو أشعري جلد ولا أدل على ذلك من كتابه تبيين كـــذب المفتـــري على أبي الحسن الأشعري الذي يعد مرجعًا من أهم المراجع عن أبي الحسن وأنشأ في حلب المدرسة النفرية النورية وتولى التدريس فيها مســـعود بـــن النيسابوري وكانت هذه المدارس يشرف علها مشائخ الأشاعرة.

- **صلاح الدين الأيوبي:** يقول المقريزي وأما العقائد فإن السلطان صلاح الدين حمل الكافة على عقيدة أبي الحسن الأشعري وشرط ذلك في أوقافه في ديار مصر كالمدرسة الناصرية[٥٦].

وصلاح الدين كان قد نشا في صباه وذلك عائد إلى الطريقة التي نشأ عليها منذ كان في خدمة السلطان العادل نور الدين محمد زنكي بدمشق يقول عنه المقريزي: " وحفظ صلاح الدين في صباه عقيدة ألفها له قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمد مسعود النيسابوري وصار يحفظها صغار أولاده فلذلك عقدوا الخناصر وشدوا البنان على المذهب وحملوا في أيام دولتهم كافة الناس على التزامه[٥٧].

وقد ألف فخر الدين الرازي كتابًا سماه أساس التقديس للملك العادل محمد بن أيوب بن شاد أخي صلاح الدين الأيوبي.

ومن ساعد على انتشاره مجموعة من كبار العلماء من الأصوليين واللغويين والمحدثين والفقهاء وخاصة فقهاء الشافعية والمالكية المتأخرين مثل الباقلاني وابن فورك والبيهقي والإسفراييني والشيرازي والجويني والقشيري والقاضي البغدادي والغزالي والرازي والآمدي والعز بن عبد السلام، وبدر الدين ابن جماعة والسبكي والسيوطي، إلى غير ذلك من الأعلام، ولقد انتشر في الحجاز بواسطة أبي ذر الهروي، وانتقل عن طريقه إلى المغرب كذلك بواسطة وفود الحجاج وانتقل إلى المغرب أيضًا من طريق الباجي وابن العربي وأبي بكر الأبهري وغيرهم[٥٨].

أهم آرائه الكلامية في هذا الطور:

هذا الطور هو من أكثر الأطوار تداولا وانتشارا بين الناس ويمثله

من كتبه الموجودة عندنا الآن كتابه «اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع».

ويتميز هذا الطور بالنزول في بحبوحة علم الكلام وهو ينصف في ذلك إذا علمنا أنه يخاطب فرسان هذا الشأن وهم المعتزلة الذي لا يفحمون إلا بعلم الكلام وعمل الشيخ أبو الحسن جهده في ذلك ولذلك لا نجد الدليل النقلي وإن وجد كان متأخرا بخلاف كتابه الإبانة في أصول الديانة الذي يبدأه في غالب الأمر بالدليل النقلي ثم يزيد على ذلك بذكر الدليل العقلي.

وهنا سأذكر أهم هذه المسائل من خلال نقاط:

أولا: إثبات الصانع:

يستدل الأشعري على إثبات الصانع بالإنسان الذي هو في غاية الكمال وهو كما يقول: لا يستطيع أن يحول نفسه من طور إلى آخر يقول الأشعري: «وقد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال إلى حال لأنا نراه في حال كمال قوته وتمام عقله لا يقدر أن يحدث لنفسه سمعا ولا بصر ولا أن يخلق لنفسه جارحة»(٥٩).

فالأشعري يريد أن يقول إنه لما كان عاجزا في حال قوته فكيف به في حال ضعفه ثم يستدل على ذلك ضاربا القطن مثلا حيث لا يجوز أن يتحول غزلاً مفتولاً ثم ثوبًا منسوجًا بلا ناسج.

فهذا مما يدل على أن الشيء لا بد له من محرك إذ هو لا يحرك نفسه ثم يجيب من يجعل للنطفة احتمال القدم بأنه لو كان كما ذكروا لما جاز لها أن يلحقها الاعتمال والتأثير والانقلاب والتغيير ثم يذكر من الأدلة على الحدوث جريان سمات الحدوث لأن ما جرت عليه سمات الحدوث ولزمته

الصنعة لم ينفك من سمات الحدوث وما لم يسبق المحدث كان محدثا مصنوعا فبطل بذلك قدم النطفة وغيرها من الأجسام.

ثانيا: وحدة الصانع:

يستدل الشيخ أبو الحسن على هذه النقطة بأدلة عقلية أولها أن الإثنين لا يجري تدبيرهما على نظام واحد ومن ثم بين أمرين أمام اختلاف الإرادتين.

أ- أن تتم إرادتهما بأن يريد أحدهما إحياء إنسان ويريد الآخر عدم ذلك فهذا باطل لما فيه من اجتماع النقيضين.

ب- أن تتم إرادة أحدهما دون الآخر وهذا الأخير لا يصح كونه إلهًا لعجزه لأن الإله لا يكون عاجزا.

ثالثا: نفي الجسمية:

ينفي الشيخ الأشعري أن يكون الباري جسما لأن الجسم هو الطويل العريض المجتمع والواحد لا يجامع نفسه لأن أقل قليل الإجتماع لا يكون إلا من اثنين فصاعدا (٦٠).

فالشيخ الأشعري ينفي الجسمية لأنها تتنافى مع الوحدانية وينفي الإجتماع وإن قيل إن المراد بالجسم شيء آخر غير الطويل العريض العميق كان جواب الأشعري أننا لا نطلق على الباري اسما لم يسم به نفسه ولا سماه به رسوله ولا أجمع عليه المسلمون.

أي أن الكتاب والسنة والإجماع لا يوجد فيها دليل على ذلك وتستحيل الجسمية لأن الجسم محدث والباري لا يشبه المحدثات لأنه لا يخلوا أن يشبهه من كل الجهات أو من بعضها وفي كلتا الحالتين يكون حكمه حكم

المحدث لأن كل مشتبهين حكمهما واحد فيما اشتبها فيه كما يقول الأشعري(٦١).

رابعا: أول واجب:

هذه المسألة من المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الأشاعرة أنفسهم على أربعة أقوال وهي مبنية على مسألة أخرى وهي كيف تحصل المعرفة بالله عند الإنسان.

القول الأول: أن معرفة الله لا تحصل إلا بالنظر وهذا يقول به المعتزلة والأشاعرة.

القول الثاني: أن المعرفة يبدأها الله في قلوب العباد اختراعا.

القول الثالث: أن المعرفة بالله يمكن أن تقع بالضرورة ويمكن أن تقع بالنظر وهذا قول جماهير طوائف المسلمين(٦٢).

فالذين قالوا أن المعرفة لا تحصل إلا بالنظر والأشعري منهم اختلفوا في أول واجب.

القول الأول: النظر الصحيح المفضي إلى العلم بحدوث العالم وهذا للأشعري ، يقول أحمد المقري:

وقد عزوا ذا للإمام الأشعري وهو عن الأشكال والضعف عرى

القول الثاني: القصد إلى النظر

القول الثالث: أول واجب الشك

القول الرابع: المعرفة بالله وهذا يعزى إلى إمام الحرمين.

وبهذا يتبين أن الخوض بهذه الطريقة يتميز بها المذهب الأشعري في هذا الطور عن غيره إذ يرى أهل السنة أن أول واجب هو شهادة أن لا إله

إلا الله كما في حديث معاذ وفيه: «إنك تأتي قوما أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله»(٦٣).

خامسا: القدر

تعتبر مسألة القدر مفترق طرق بين الفرق الإسلامية وليس المقصود هنا مناقشة هذه القضية بكل جزئياتها بل ننظر في جوانب كان للشيخ أبي الحسن الأشعري كلمته فيها.

والقدر يتألف من أربعة مراتب وهي: العلم ، والكتابة ، والمشيئة ، والخلق.

والذي أدى إلى تشعب الطرق في باب القدر كما يروي بعض الباحثين هو تعلقه بحياتهم اليومية فأدى ذلك إلى جراءة الناس على الخوض فيه من غير إدراك مراتبه وكنهه وأن الحقيقة لم تتغير بعد الإسلام بل هو نفس الخلاف الموجود قبله وقد نحى الناس فيه مذاهب متعددة.

- مذهب الجبرية الذي يرى أن الإنسان مجبور على أفعاله وليس له إرادة ولا قوة وهذا مذهب الجهمية ومن وافقهم.
- مذهب القدرية وهو يقابل مذهب الجهمية حيث يثبت تمام الحرية للإنسان كما هو معلوم.
- المذهب الثالث قول وسط بين المذهبين السابقين يثبت أهله القدر وأن الله خالق كل شيء ، ويقولون أيضا أن للإنسان إرادة ومشيئة ولكنها خاضعة لمشيئة الله كما أن له قدرة يفعل بها فعله لكنه هو وأفعاله مخلوق لله تعالى وهذا مذهب السلف وأتباع الأنبياء ، وبين هذه الطوائف الثلاثة قد تنشأ فرق أخرى تميل في بعض المسائل إلى طائفة وفي مسائل أخرى تميل إلى طائفة ثانية.

ويكون الحكم عليها حسب ما يغلب على مذهبها فقد يقال أنها مائلة إلى مذهب الجبر أو إلى مذهب القدرية أو إلى مذهب السلف وفي هذه الساحة ينزل الأشعري بنظرية الكسب التي اشتهر بها ومسألة الاستطاعة.

مسألة الاستطاعة :

وينظر فيها من ناحية معناها ومن ناحية وقتها هل هي قبل الفعل أو بعده؟ ومعناه هو الوسع والقدرة والقوة وعرفها الجرجاني بأنها هي عرض يخلقه الله في الحيوان يفعل به الأفعال الإختيارية[٦٤] ، وهي في عرف المتكلمين عبارة عن صفة بها يتمكن الحيوان من الفعل والترك.

وقد وقع الخلاف فيها على أقوال:

- قول الجهمية: وهو أنه ليس للعبد أي استطاعة لا قبل الفعل ولا معه بل له قدرة شكلية غير مؤثرة في الفعل وتسمى فعلا له تجوزا.
- قول المعتزلة: ومن وافقهم وهو أن الله تعالى قد مكن الإنسان من الاستطاعة وهذه الاستطاعة قبل الفعل هي قدرة عليه وعلى ضده وهي غير موجبة للفعل.
- قول الأشاعرة: ومن وافقهم وهو أن الاستطاعة مع الفعل لا يجوز أن تتقدمه ولا أن تتأخر عنه بل هي مقارنة له وهي من الله تعالى وما يفعله الإنسان بها فهو كسب له.

ويتناولها أبو الحسن الأشعري من حيث علاقة الإنسان بها من عدمه وهل هي غيره وهل تتقدم أم لا تتقدم؟.

ويرى أن الاستطاعة هي غيرة لأنا نجده تارة عاجزا كما يكون تارة عالما وتارة غير عالم وتارة متحركا وتارة غير متحرك فعلى هذا يجب أن يكون مستطيعا بمعنى هو غيره كما يجب أن يكون عالما بعلم هو غيره لأنه

لو كان مستطيعا بنفسه أو بمعنى تستحيل مفارقته له لم يوجد إلا وهو مستطيع فلما وجد مرة مستطيعا ومرة غير مستطيع صح وثبت أن استطاعته غيرة.

ثم ينتقل إلى مسألة تقدمها على الفعل فيجعل الفعل بين حالتين إما أن يكون حادثا مع الإستطاعة في حال حدوثها أو حادثا بعد الإستطاعة.

فإن كان الفعل لم يحدث إلا مع الاستطاعة في وقت حدوثها فيصح أنها مع الفعل للفعل وإذا كان الفعل قد حدث بعد الاستطاعة أي بمعنى أنها تقدمت عليه وقد دلت الأدلة على أن الاستطاعة لا تبقى فوجب على هذا أن يكون الفعل حادثا بقدرة معدومة.

ثم يواصل التنظير لتقريرها ثم يقول: لو جاز حدوث الفعل مع عدم القدرة والحال أن الفعل وقع بقدرة معدومة لجاز أن يقع الإحراق بحرارة معدومة.

ثم يستدل على عدم بقاء القدرة بأنها لو بقيت لكانت لا تخلوا من أن تبقى لنفسها أو لبقاء يقوم فإذا كان لنفسها ترتب على ذلك أن تكون هي نفسها بقاء وأن لا توجد إلا باقية وفي هذا ما يوجب أن تكون باقية في حال حدوثها.

أما بقاؤها ببقاء يقوم بها يلزم عليه محظور وهو أن البقاء صفة والصفة لا تقوم بنفسها كما أن العرض لا يقوم بعرض والدليل على عدم جواز قيام الصفة بالصفة عدم قيام القدرة بالقدرة والحياة بالحياة وبالعلم بعلم وهكذا.

ولذلك يقول الأصوليون إن الأمر لا يتوجه الخطاب به على وجه الفعل إلا عند المباشرة لأنه قبل المباشرة غير مستطاع فعله.

وأكثر القضايا العقدية هنا مبنية على قواعد كلامية يستدلون بها أصلا ثم بعد ذلك لم يجدوا بدا من أن يلتزموا بلوازمها وهي كثيرة كالتفريق بين الجوهر والعرض وأن الجوهر لا يقبل القسمة وأن العرض لا يقوم بنفسه وأنه لا يقوم بعرض آخر وأنه لا يبقى زمانين إلى غير ذلك.

مسألة الكسب:

قد تقدم معنا قول الجبرية والمعتزلة وأهل السنة في علاقة الإنسان بأفعاله وهنا نجد الشيخ أبا الحسن لا هو يقول بقول أهل الحديث ولا هو يقول بقول الجبرية وإن كان يميل إليه.

وحقيقة هذا الكسب عند الأشعري كما يقول الدكتور الطيب بن عمر في كتابه عقيدة السلف: «يرى الأشعري أن الإنسان لا يستطيع شيئا ولكنه يقدر على الكسب»(٦٥).

وهو الذي يقول فيه أحمد المقري:

نعم له كسب به يكلف شرعا ولا تأثير منه يولف (٦٦)

ويزيد الحافظ جلال الدين السيوطي توضيحا بقوله:

وكل أمر واقع بإذنه سبحانه خالق كسب عبده

قدر فيه قدرة للكسب لا بداعه تصلح فالله علا

خالف لا مكتسب ما يصنع وعبده مكتسب لا مبدع(٦٧)

وتعدد الآراء داخل المذهب الأشعري في مسألة الكسب وتعريفه ومن أهم ما يذكرون من التعريفات له:

١- ما يقع المقدور به من غير صحة انفراد القادر به

٢- ما يقع به المقدور في محل قدرته

٣- أنه ما وجد بالقادر وله عليه قدره محدثة [٦٨].

والذين حاولوا توضيح الكسب يضربون له مثلا بالحجر الكبير فيقولون الحجر الكبير قد يعجز عن حمله رجل ويقدر على حمله رجل آخر فإذا اجتمعنا جميعا على حمله كان حصول الحمل بأقواهما ولا يخرج بذلك أضعفهما عن كونه حاملا كذلك العبد لا يقدر على الفعل منفردا ولو أراد الله الانفراد بإحداث ما هو كسب للعبد قدر عليه بوجوده على الحقيقة بقدرة الله تعالى ولا يخرج بذلك المكتسب من كونه فاعلا وإن وجد الفعل بقدرة الله تعالى.

تنبيه: قيل إن الكسب عند الأشعري والطفرة عن النظام والأحوال عند أبي هاشم من ما لا يفهم.

• المبحث الرابع: في أخذه عقيدة أهل الحديث:

أولاً: ملامح عقيدة السلف:

إن الطريقة الوحيدة إلى العقيدة عند أهل السنة والجماعة هي طريق السلف الصالح ومنهجهم المتمثل في الأخذ بما جاء في الكتاب والسنة وإثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه، وما أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم، ونفي ما نفاه الله سبحانه أو نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم، والسير في هذا المسار، فهم يعتقدون بقلوبهم، ويشهدون بألسنتهم إن الله تعالى لا إله غيره، وأن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله، ويؤمنون بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله عز وجل، لا يؤولون شيئًا من ذلك ولا يصرفونه عن ظاهره، ويثبتون لله عز وجل أسماءه الحسنى

وصفاته العلا، على الوجه اللائق به تعالى، من غير تكييف ولا تأويل ولا تعطيل، ولا تحريف، على حد قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾(٦٩)، ويؤمنون بأن الله تعالى إلهًا واحدًا، لا إله غيره ولا نظير ولا والد ولا ولد ولا صاحبة ولا شريك، ليس لأوليته ابتداء وليس لآخريته انقضاء، لا يبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون، كما أخبر الله عز وجل بذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ﴾(٧٠)، لا يشبهه سبحانه أحد من خلقه لا في ذاته ولا في صفاته، بل الوحدانية المطلقة، فهو واحد في ذاته، وواحد في صفاته.

ويعتقد أهل السنة والجماعة أن الله عز وجل مستو على عرشه بائن من جميع المخلوقات، وعلمه في كل مكان ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(٧١).

خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(٧٢)، على العرش استوى وعلى الملك احتوى لم يزل بجميع صفاته وأسمائه، تعالى أن تكون صفاته مخلوقه أو أسماؤه محدثة، كلم موسى بكلامه، وكلامه صفة من صفاته، لا خلق من خلقه، وتجلى للجبل فصار دكًا من جلاله، والقرآن كلام الله ليس بمخلوق ولا صفة لمخلوق فينفد أو يبيد، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٧٣)

ويؤمنون أن الله قدر كل شيخ ومقادير الأمور بيده، وتصدر عن قضائه وقدره علم كل شيء قبل كونه، فجرى على قدره ولا يكون من عباده قول ولا عمل إلا وقد قضاه وسبق علمه به، يقول عز وجل ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(٧٤).

يضل من يشاء، فيخذله بعدله ويهدي من يشاء فيوفقه بفضله، فكل ميسر بتيسيره إلى ما سبق من علمه وقدره، من شقي أو سعيد، ولا يكون في ملكه إلا ما يريد، وهو رب العباد، الذي خلقهم وخلق أعمالهم، وهو المقدر لحركاتهم وآجالهم، وباعث الرسل إليهم لإقامة الحجة عليهم.

وقد ختم سبحانه وتعالى الرسالة والنبوة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم فلا نبوة بعده ولا رسالة، وقد أنزل عليه القرآن الكريم وبين به دينه القويم، وهدى به إلى الصراط المستقيم، ﴿صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾(٧٥).

ويعتقدون: أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور، كما بدأكم تعودون، وأن الله عز وجل يضاعف الحسنات للمؤمنين من عباده، يصفح لهم بالتوبة عن كبائر الذنوب، ويغفر لهم الصغائر باجتناب الكبائر، ويجعل من لم يتب من الكبائر إلى مشيئته سبحانه، على غرار قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(٧٦).

فمن عاقبه منهم بناره أخرجه منها بإيمانه، فأدخله جنته، ويخرج من النار كذلك من يشفع فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل المعاصي من الأمة المحمدية.

ويؤمنون بأن الله عز وجل خلق الجنة وأعدها دار خلود لأوليائه وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم، كما قال تعالى في محكم كتابه ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (٧٧).

وهذه الجنة هي التي أهبط منها نبيه وخليفته في أرضه آدم عليه الصلاة والسلام.

وخلق النار فأعدها دار خلود لمن كفر به وكذب رسله وأنبياءه.

ويقرون أن الله عز وجل يجيء يوم القيامة والملك صفًا صفًا لعرض الأمم وحسابها وعقابها وثوابها، وأن الموازين القسط توضع لوزن أعمال العباد ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾(٧٨)

وأن العباد إذا بعثوا من قبورهم يؤتون صحائف أعمالهم: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ* فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا* وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا* وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ* فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا* وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾(٧٩)

وأنه يدخل من أمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الجنة سبعون ألفًا بغير حساب ولا عقاب وهم الذين لا يتطيرون ولا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون، ومنهم عكاشة بن محصن رضي الله عنه.

ويعتقد أهل السنة أن الصراط يجوزه العباد بقدر أعمالهم، فناجون مسلمون متفاوتون في سرعة النجاة عليه، وآخرون أوبقتهم أعمالهم فسقطوا في جهنم، ويؤمنون بأن حوض النبي صلى الله عليه وسلم حق ترده أمته لا يظمأ من شرب منه، ويذاد عنه من بدل أو غير في دين الله عز وجل.

ومن أصول أهل السنة أن الإيمان قول واعتقاد وعمل يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وأن الله لا يقبل من أحد عملاً إلا بشرطين :

الأول: أن يكون خالصًا لله عز وجل.

والثاني: أن يكون مطابقًا لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من عند الله تعالى.

وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي، والكبائر لا تخرج من الملة، بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي، كما قال تعالى ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾(٨٠). وقال عز وجل: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨١)، فلا يسلبون عن الفاسق الإسلام بالكلية، ولا يخلدونه في النار كما تقول المعتزلة، وإنما يقولون هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فلا يعطى الإسم المطلق، ولا يسلب مطلق الإسم، فلا يكفر بالمعاصي عند أهل السنة، ولا يحكم على صاحبها بالخلود في النار، بل هو تحت مشيئة الله تعالى، فإن شاء عذبه بعدله فأدخله النار ثم أخرجه منها، وإن شاء غفر له بفضله، فلا يرون تكفيرًا إلا من حكم الله عليهم بالكفر أو حكم عليهم رسوله صلى الله عليه وسلم به كذلك.

وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله، وأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلى يومهم الذي يبعثون فيه، وأرواح أهل الشقاوة معذبة إلى يوم القيامة، وأن المؤمنين يسألون في قبورهم فـ ﴿يُثَبِّتُ

اللهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآَخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾(٨٢).

ويقرر أهل السنة أن على العباد حفظة يكتبون أعمالهم ولا يخفى شيء من ذلك عن علم ربهم جل من عليم، وأن ملك الموت يقبض الأرواح بإذن الله تعالى.

ويعتقد أهل السنة والجماعة أن خير القرون القرن الذين رأوا النبي صلى الله عليه وسلم وآمنوا به ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم.

ومن أصولهم سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كما وصفهم الله به في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آَمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٨٣).

وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: «ولا تسبوا أصحابي فو الذي نفس محمد بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهابًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»، ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم، ومراتبهم، ويفضلون من أنفق من قبل الفتح وهو صلح الحديبية، وقاتل على من أنفق من بعد وقاتل، ويقدمون المهاجرين على الأنصار ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة، كما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم، بل لقد رضي الله عنهم ورضوا عنه، ويشهدون بالجنة لمن شهد له الرسول صلى الله عليه وسلم كالعشرة، وثابت بن قيس بن شماس، وغيرهم من الصحابة، ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وغيره من أن خير

هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، ثم عمر، ويثلثون بعثمان ويربعون بعلي رضي الله عنهم، ويحبون أهل بيت رسول صلى الله عليه وسلم حيث قال: «يوم غدير خم، أذكركم الله في أهل بيتي»، ويتبرؤون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم، وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل.

ويمسكون عما شجر بين الصحابة ويقولون إن الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب ومنها ما قد زيد فيها ونقص وغير عن وجهه والصحيح منه هم فيه معذورون، فيلتمس لهم أحسن المخارج، ويظن بهم أحسن المذاهب.

ويعتقد أهل السنة والجماعة أن الجهاد في سبيل الله حق مع البر والفاجر من أئمة المسلمين، كما أنه يصلي خلف البر والفاجر من هؤلاء الأئمة، وأن طاعة ولاة أمور المسلين واجبة إلا في معصية الله تعالى، ويجب الاقتداء بالسلف الصالح واقتفاء آثارهم، والاستغفار لهم، وترك المراء والجدال في الدين، والابتعاد عن البدع والمحدثات، إذ كل خير في اتباع من سلف، وكل شر في اتباع من خلف.

ثانيًا: إثبات انتمائه إلى مذهب أهل الحديث:

يعتبر هذا المبحث من المباحث التي احتدم فيها الخلاف بين الناس في حياة أبي الحسن الأشعري وسأتناول في هذا المبحث ما يدل على تحوله إلى مذهب أحمد من خلال أقواله هو ومن خلال أقوال علماء هذه الأمة الذين عرفوا بالإمامة، أما من خلال أقواله فهذا نجده في ما هو موجود من كتبه التي تمثل هذه المرحلة كالإبانة في أصول الديانة وكتابه المسمى رسالة إلى

أهل الثغر وكتابه مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين فالأدلة من هذه الكتب تدل على أنه أخذ مذهب أحمد بن حنبل ففي كتابه الإبانة الذي هو آخر كتبه يقول فيه: «قولنا الذي نقول به وعقيدتنا التي ندين بها: التمسك بكتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا عليه السلام وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ونحن بذلك معتصمون».

بعد هذا الكلام الصريح سنجد أنه لا يترك للإجمال واللبس مجالاً لأن كل أحد أو طائفة مهما بلغ من الضلال والانحراف لن يرى لنفسه إلا أنه متمسك بهدي النبي صلى الله عليه وسلم.

وهنا نجد الإمام الحسن يبين المقصود بأهل الحديث كأحمد ويبالغ في الثناء عليه فيقول: «وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل نضر الله وجهه، ورفع درجته وأجزل مثوبته قائلون ولما خلف قوله مخالفين لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق ورفع به الضلال وأوضح به المنهاج وقمع به المبتدعين وزيغ الزائغين وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مقدم وخليل معظم مفخم»(٨٤).

فهذا النص من هذا الإمام الذي لا يقبل التأويل نجده في غير هذا الكتاب ككتابه المسمى رسالة إلى أهل الثغر فمجموع مسائله هي صريح ما يقول به أهل الحديث وقد ختمه بقوله: «فهذه الأصول التي مضى الأسلاف عليها واتبعوا حكم الكتاب والسنة بها واقتدى بهم الخلف الصالح في مناقبها»(٨٥).

وكذلك يقول في كتابه مقالات الإسلاميين: «فهذه جملة ما يأمرون به ويستعملونه ويرونه وكل ما ذكر من قولهم نقوله وإليه نذهب»(٨٦).

وقد صرح الكثير من أهل العلم بهذا القول منهم الحافظ بن كثير حيث

يقول: " ذكروا للشيخ أبي الحسن الأشعري ثلاثة أحوال.. إلى أن يقول: «والحال الثالث إثبات ذلك كله من غير تكييف ولا تشبيه جريًا على منوال السلف وهي طريقته في الإبانة التي صنفها آخرًا »[٨٧].

وممن ذكر هذا كذلك محب الدين الخطيب في تعليقه على المنتقى من منهاج الاعتلال.

وقد ذكره الشيخ محمد سالم بن عدود في نظمه للعقيدة :

ولست ذاكرًا سوى المتفق عليه من قبل نشوء الفرق

مما إليه الأشعري قد رجع متبعًا أحمد نعم المتبع

ويقول الشيخ محمد الصالح العثيمين - رحمه الله -: «المرحلة الثالثة مرحلة اعتناق مذهب أهل السنة والحديث مقتديًا بالإمام أحمد بن حنبل رحمه الله»[٨٨].

وممن ذكر هذا القول شيخنا الدكتور الطيب بن عمر حيث قال: «ويا ليت المتأخرين من متكلمي الأشاعرة تقيدوا بعقيدة السلف ومنهجهم الذي انتهى إليه تكفير إمامهم بعد رحلة طويلة وتجارب طويلة»[٨٩].

ثالثا: مقالاته الدالة على أخذه بمذهب أهل الحديث

إن من نظر كتبه التي تمثل هذه المرحلة يجد بغيته فيها مثل الإبانة ورسالته إلى أهل الثغر ومقالات الإسلاميين واختلاف المصلين.

وأذكر هنا بعض المسائل التي هي محل النزاع مثل مسائل الصفات والكلام والرؤية والقضاء والقدر وبعد ذلك جملة من المسائل المتفرقة التي أقرها الأشعري موافقًا لأهل السنة كعذاب القبر والإمامة والنصح للمسلمين إلى غير ذلك.

أولاً: الصفات الخبرية:

تعتبر الصفات من نقاط الخلاف والصراع بين الطوائف والفرق حيث نفاها بعضهم وأولها الآخر أو فوضها إلى غير ذلك.

والذي يعنينا هنا هو مذهب الإمام أبي الحسن حيث يعتبر في طوره الثاني أثبت الصفات السبع وهي: القدرة والإرادة والعلم والحياة والكلام والسمع والبصر، هذه هي التي ذكرها في كتابه اللمع ردا على المعتزلة.

أما طوره الأخير فقد أثبت فيه جملة من الصفات الخبرية كالوجه والقدم والساق واليد والعين يقول في الإنابة: " وأن له وجهًا كما قال «ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام»، وأن له يدين بلا كيف كما قال: «خلقت بيدي»، وأن له عينين بلا كيف كما قال: «تجري بأعيننا»(٩٠).

ثم يؤكد هذا في جميع الصفات حيث يقول: «وأجمعوا على أن صفته عز وجل لا تشبه صفات المحدثين»(٩١).

ولا يكتفى بهذا بل يرد على المؤولين اليد بالنعمة أو القدرة فلو كانت بمعنى القدرة لما كانت ثمت مزية في خلق آدم على إبليس.

ولم كانت بمعنى النعمة لما ساغ جمعها بأيد.

وهذا الجمع أيضًا يرد عن من لا يثبت لله صفة واحدة فكيف يثبت له صفات متعددة.

ثم يتساءل عن مصدر هذا الزعم هل هو الإجماع أو اللغة فيفند ذلك كله كما يفند أن يكون ثابتًا بالقياس.

والذين أولوا هذه الصفات أولوها مخافة مماثلة المخلوقين حسب زعمهم وذلك طبعًا لم يثبت عند السلف بل الثابت عن كثير منهم أنه قال عن تفسيرها إنه إقرارها بل شاع عندهم أمروها كما جاءت.

ثانيًا: الصفات الاختيارية:

هذه كذلك من جنس ما وقع فيه الخلاف وكانت حجة المؤولين لها مخافة حلول الحوادث في القديم كما يقولون.

والحق أن كون ظاهرها يقتضي مماثلة المخلوق غير مسلم فلو أنها كانت كذلك لأشكلت على الصحابة ولا اعترض بها الكافر أو حاج بها النبي صلى الله عليه وسلم وكل ذلك لم يقع.

من هذه المسائل :

مسألة الاستواء والإمام أبو الحسن لا يؤول الاستواء بل يقره كما هو فيقول: إن قال قائل ما تقولون في الاستواء؟ قل له نقول إن الله عز وجل مستو على عرشه كما قال (الرحمن على العرش استوى).

ثم يرد تلك التأويلات بالاستيلاء أو الملك أو القهر بأنه لو كان كذلك لما كان ثمت فرق بين العرش والأرض فكل هذا ملكه الله واستولى عليه.

ثانيا: من أنكر هذا وجعل البديل كونه في كل مكان وهذا يلزم منه أبطل الباطل وهو كونه في التحت وكونه تحت التحت وكونه في البطن إلى غير ذلك مما لا يقره عقل ولا شرع وقد أطال الكلام في هذه المسألة مستدلاً بالآيات والأحاديث في كتابه الإبانة.

ومن هذه الصفات صفة النزول والمجيء ومذهب الإمام أبي الحسن الأشعري إثباتها وذكر في سياق إثبات صفة الاستواء والدليل على ذلك عنده هو حديث نافع بن جبير عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول هل من سائل فأعطيه هل من مستغفر فأغفر له؟ حتى يطلع الفجر»(٩٢).

وقد صرح الحافظ ابن القيم في نونيته :

فالأشعري مصـــرح بالاســـتوا عوبـــــالعلو بغايـــــة التبيـــــان

ومصرح أيضًا بإثبـــات الأصـــا بع مثل ما قد قـــال ذو البرهـــان

ومصرح أيضًا بإثبـــات اليديـــــ ـــن ووجه رب ارش ذي السلطان(٩٣)

وكلامه في القدر صريح فهو يثبت جميع مراتبه ويستدل بآيات وأحاديث صريحة يذكر فيه حديث عبد الله بن مسعود المشهور قال أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين ليلـــة ثـــم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه الملـــك قـــال فيؤمر بأربع كلمات يقال اكتب أجله ورزقه وعلمه وشقي أو سعيد ثم يـــنفخ فيه الروح قال فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينهـــا إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل عمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها»(٩٤).

ثم يواصل الاستدلال بآيات في الباب وعلى العموم يذكر مراحل القـــدر فيقول: «وكل ذلك بأمر قد سبق في علم الله عز وجل ونفذت فيـــه إرادتـــه وتقدمت فيه مشيئته»، كما في الإبانة ولا نجد ذكرًا للكسب في كتبه التي تمثل هذه المرحلة وكذلك كلامه في الرؤية واضح يذكر في هذا الصدد قوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(٩٥).

ويرد على كل المؤولين للنظر بمعنى الانتظار بالأحـــداث وبالمعـــاني اللغوية التي ترد كل التأويلات ويتكلم عن القرآن ويثبت أنه كـــلام الله عـــز وجل غير مخلوق ويرد على من يقول إنه مخلوق أو من يتوقف عنه.

أما بقية المسائل العقدية فكان فيها صريحًا فهو يبين أن الله خالق لجميع المخلوقات وأن الإنسان لا يخلق شيئًا وأن الغنى المطلق لله عز وجل وأن العباد محتاجون إلى الله وبين حرمة الاعتراض على حكم الله وأن الإيمان يزيد وينقص وأن المؤمن لا يخرج بمعصية من الإيمان، ووجوب الإيمان بالأمور الغيبية كعذاب القبر وسؤال منكر ونكير والصور والنفخ فيه وإعادة الناس بعد النفخ للحساب والجزاء ونصب الموازين لوزن الأعمال وإخراج الصحف التي كتبتها الملائكة والإيمان بالصراط وأنه جسر ممدود على ظهر جهنم وأن الله لا يدخل في النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ووجوب الإيمان بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الكبائر من أمته والإيمان بحوضه الذي يشرب المؤمن منه والإيمان بإسرائه وعروجه صلى الله عليه وسلم والإيمان بأشراط الساعة كما ورد في القرآن والسنة.

ووجوب التصديق بكل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من عند ربه والعمل بحكمه والإيمان بنص متشابهه ووجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتكلم كذلك عن طاعة أئمة المسلمين في غير معصية ونهى عن الخروج عليهم بالسيف وأوجب أداء الفرائض معهم وتكلم عن خيرية قرن الصحابة كما جاء في الحديث ثم تكلم على وجوب الكف عن ذكر الصحابة بسوء وذكر أنهم من خيار الناس وينبغي أن تنشر محاسنهم وأن تحمل أفعالهم على أفضل المخارج مؤكدًا فضلهم على من بعدهم بشهادة القرآن والسنة وتكلم كذلك على ذم أهل البدعة وذكر منهم الخوارج والروافض والمرجئة والقدرية وتكلم على وجوب النصح للمسلمين.

هذا هو مجموع ما تحدث به في إجماعاته في كتابه المسمى رسالة إلى أهل الثغر وكتابه الموسوم الإبانة في أصول الديانة.

ونذكر أخيرًا ما أثبته الأشعري من مؤلفاته، كما جاء في كتابه العمد.

١- (الفصول) في الرد على الملحدين والخارجين عن الملحة.

٢- (الموجز) اشتمل على اثني عشر كتابًا على حسب تنوع مقالات المخالفين من الخارجين عن الملة والداخلين فيها، وآخره كتاب الإمامة.

٣- (كتاب في خلق الأعمال) نقض فيه اعتلالات المعتزلة والقدرة في خلق الأعمال.

٤- (كتاب في الاستطاعة) رد على المعتزلة.

٥- (كتاب كبير في الصفات) تكلم فيه عن أصناف المعتزلة والجهمية ورد عليهم، وذكر أنه أثبت فيه الوجه واليدين والاستواء.

٦- (كتاب في جواز رؤية الله بالأبصار) نقض فيه جمع اعتلالات المعتزلة.

٧- (كتاب كبير في اختلاف الناس في الأسماء والأحكام والخاص والعام).

٨- (كتاب في الرد على المجسمة).

٩- (كتاب في الجسم) ذكر فيه أن المعتزلة لا يمكنهم أن يجيبوا عن مسائل الجسمية، كما يمكنه ذلك وبين فيه لزوم مسائل الجسمية على أصولهم.

١٠- (إيضاح البرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان).

١١- اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع

١٢- (اللمع الكبير) وهو مدخل لكتاب إيضاح البرهان الذي سبق ذكره.

١٣- (اللمع الصغير) وهو مدخل للمع الكبير.

١٤- (الشرح والتفصيل في الرد على أهل الإفك والتضليل) جعله مقدمة ينظر فيها قبل كتاب اللمع، وهو للمبتدئين ويصلح للمتعلمين.

١٥- (كتاب في نقض كتاب الأصول للجبائي) كشف فيه عن تمويهه في سائر الأبواب، بل أنه ذكر فيه حججًا للمعتزلة لم يذكرها أحد منهم ثم نقضها بحجج الله وبراهينه.

١٦- (كتاب كبير ينقض فيه الكتاب المعروف بنقض تأويل الأدلة للبلخي) رد فيه على شبهه التي أوردها ومنها الصفات.

١٧- (مقالات المسلمين) استوعب فيه اختلافهم ومقالاتهم وهو الكتاب المطبوع حاليًا " مقالات الإسلاميين ".

١٨- (جمل المقالات) أثبت فيه جمل مقالات الملحدين، وجمل أقاويل الموحدين.

١٩- (الجوابات في الصفات عن مسائل أهل الزيغ والشبهات) وهو كتاب كبير في الصفات، يقول ابن عساكر: أنه أكبر كتبه، ويقول عنه الأشعري: «نقضنا فيه كتابًا كنا ألفناه قديمًا فيه على تصحيح مذهب المعتزلة، لم يؤلف لهم مثله، ثم أبان الله سبحانه لنا الحق فرجعنا عنه، فنقضناه وأوضحنا بطلانه »[٩٦].

٢٠- كتاب في الرد على ابن الراوندي في الصفات والقرآن.

٢١- (كتاب نقض فيه كتابًا للخالدي ألفه في القرآن والصفات قبل أن يؤلف كتابه الملقب بالملخص).

٢٢- (القامع لكتاب الخالدي) نقض به كتابًا في إثبات حدوث إرادة الله تعالى، و أنه شاء ما لم يكن، وكان ما لم يشأ

٢٣- (نقض كتاب المهذب للخالدي) ذكر الأشعري أن الخالدي ألف كتابًا في المقالات فنقضه الأشعري بهذا الكتاب وسماه «الدافع للمهذب».

٢٤- (نقض كتاب الخالدي الذي نفى فيه رؤية الله تعالى بالأبصار).

٢٥- نقض كتاب الخالدي الذي نفى فيه خلق الله للأعمال وتقديرها.

٢٦- كتاب نقض به على البلخي كتابًا ذكر أنه أصلح به غلط ابن الراوندي في الجدل.

٢٧- (كتاب في الاستشهاد) بين فيه كيف يلزم المعتزلة على منهجهم في الاستشهاد بالشاهد على الغائب، أن يثبتوا علم الله وقدرته وسائل صفاته.

٢٨- (المختصر في التوحيد والعدل) تكلم فيه عن الرؤية ومسائل الصفات وأبواب القدر، وقال عنه الأشعري: «وسألناهم فيه عن مسائل كثرة ضاقوا بالجواب عنها ذرعًا، ولم يجدوا إلى الانفكاك عنها بحجة سبيلاً»(٩٧).

٢٩- شرح أدب الجدل

٣٠- كتاب الطبرانيين في فنون كثيرة من المسائل.

٣١- جوانب الخرسانية.

٣٢- كتاب الأرجانيين

ما تقدم ذكره من رقم (٢١-٣٨) كتب تحمل أجوبة من الأشعري لأهل هذه البلاد، ويذكر الأشعري أنها في مسائل من الكلام، وأشياء كانت تدور بينه وبين المعتزلة.

٣٣- المسائل المنثورة البغدادية في مسائل دارت بينه وبين أعلام المعتزلة.

٣٤- (المنتخل) في المسائل المنثورات البصريات.

٣٥- (الفنون في الرد على الملحدين).

٣٦- النوادر في دقائق الكلام

٣٧- المختزن في مسائل من الكلام.

٣٨- كتاب في باب شيء وأن الأشياء هي أشياء وإن عدمت، قال عنه الأشعري: «رجعنا عنه ونقضناه فمن وقع إليه فلا يعول عليه»[٩٨]

٣٩- كتاب الاجتهاد في الأحكام.

٤٠- كتاب في أن القياس يخص ظاهر القرآن.

٤١- كتاب في المعارف

٤٢- كتاب في الأخبار وتخصيصها.

٤٣- الفنون، في أبواب من الكلام وهو غير الفنون في الرد على الملحدين السابق ذكره.

٤٤- جواب المصريين، في مسائل الكلام

٤٥- كتاب في أن العجز عن شيء ليس العجز عن ضده وأن العجز لا يكون إلا من الموجود.

٤٦- المسائل على أهل التثنية.

٤٧- كتاب ذكر فيه جمع اعتراض الدهريين في قول الملحدين، قال عنه الأشعري: «وهو مرسوم بالاستقصاء لجميع اعتراض الدهريين، وسائر أصناف الملحدين»[٩٩].

٤٨- كتاب الدهريين.

٤٩- كتاب نقض به اعتراضا على داود بن علي الأصبهاني في مسألة الاعتقاد.

٥٠- كتاب تفسير القرآن، رد فيه على الجبائي والبلخي ما حرفا من تأويله.

٥١- كتاب زيادات النوادر.

٥٢- كتاب جوابات أهل فارس

٥٣- كتاب اخبر فه اعتلال من زعم أن الموات يفعل بطبعه.

٥٤- كتاب في الرؤية. رد فيه على الجبائي

٥٥- الجوهر في الرد على أهل الزيغ والمنكر.

٥٦- كتاب أجاب فيه عن مسائل الجبائي في النظر والاستدلال وشرائطه.

٥٧- أدب الجدل.

٥٨- كتاب في مقالات الفلاسفة

٥٩- كتاب في الرد على الفلاسفة، قال عنه الأشعري: «يشتمل على ثلاث مقالات، ذكرنا فيه نقض علل ابن قيس الدهري وتكلمنا فيه على القائلين بالهيولي، والطبائع ونقضنا فيه علل أرسطو طاليس في السماء والعالم، وبينا ما عليهم في قولهم بإضافة الأحداث إلى النجوم وتعليق أحكام السعادة والشقاوة بها»(١٠٠).

هذه هي أسماء الكتب الذي ذكرها الأشعري في كتابه: العمد في الرؤية، وبين لنا شيئًا مما احتوت عليه وذلك بذكر تعريف مختصر عن الكتاب دون ذكر اسمه في الغالب.

وقال ابن فورك بعد سرده لها: " هذه هي أسماء كتبه التي ألفها إلى سنة عشرين وثلاثمائة سوى أماليه على الناس والجوابات المتفرقة

عن المسائل الواردات من الجهات المختلفات، وسوى ما أملاه على الناس مما لم يذكر أسماه هنا، وقد عاش بعد ذلك إلى سنة أربع وعشرين وثلاثمائة صنف فيها كتبًا منها ".

٦٠- نقص المضاهاة على الإسكافي في التسمية بالقدر.

٦١- العمد في الرؤية، وهو الكتاب الذي ساق فيه أسماء كتبه السابق ذكرها.

٦٢- كتاب في معلومات الله ومقدوراته رد فيه على أبي الهذيل.

٦٣- كتاب على حارث الوراق في الصفات فيما نقض على ابن الراوندي

٦٤- كتاب أهل التناسخ.

٦٥- كتاب في الرد في الحركات على أبي الهذيل

٦٦- (كتاب على أهل المنطق) ذكر ابن فورك أنه في مسائل سئل عنها الجبائي في الأسماء والأحكام ومجالسات في خبر الواحد وإثبات القياس.

٦٧- (كتاب في أفعال النبي صلى الله عليه وسلم)

٦٨- كتاب في الوقوف والعموم

٦٩- كتاب في متشابه القرآن

٧٠- كتاب فيه بيان مذهب النصارى

٧١- كتاب في الإمامة

٧٢- كتاب في الكلام على النصارى، وقد ذكر ابن فورك: أنه مما يحتج به عليهم من سائر الكتب التي يعترفون بها.

٧٣- كتاب في النقض على ابن الراوندي في إبطال التواتر.

٧٤- كتاب نقض شرح الكتاب، والعنوان كما ترى لا يفهم المقصود منه وقد أثبتت الدكتورة فوقية دهشة المستشرق مكارثي من هذا العنوان وتذكر أنه أثبت رأي مهرن في قراءة هذا العنوان ،وهو نقض شرح الكبار[١٠١].

٧٥- نقض كتاب الآثار العلوية على أرسطو طاليس .

٧٦- كتاب في دلائل النبوة.

٧٧- كتاب في الإمامة.

٧٨- الإبانة عن أصول الديانة.

• الخاتمة:

لقد حوى هذا البحث جملة من المعالم والأساسيات في حياة أبي الحسن الأشعري بودي أن أبرزها هنا وهي كالتالي :

١- أن الأشعري نتيجة لعلاقة أمه الزوجية عاش مع المعتزلة ونبغ في مذهبهم.

٢- تمكن النزعة الكلامية عنده.

٣- مخالفته للفلاسفة

٤- إثباته للصفات التي جاء بها القرآن.

٥- موافقته في طوره الأخير لأهل السنة

٦- براءته من جميع الفرق الضالة.

وأرجو أن أكون ساهمت بنجاح في معالجة هذه المسألة فإن كان كما أردت فبفضل الله وتوفيقه وما كان من نقص فهو مني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه ولا غرابة فالإنسان محل للنقص دائمًا ويكفيه أن يكون كما قيل:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى بالمرء نبلاً أن تعد معايبه

والحمد لله الذي بنعمته وجلاله تتم الصالحات

(١٢) تبيين كذب المفتري / ٣٧٥.

(١٣) انظر تبيين كذب المفتري / ٣٥.

(١٤) انظر تاريخ بغداد ٣٤٧/١١.

(١٥) أنظر الأنساب للسمعاني ٢٦٦/١ وتبين كذب المفتري / ٣٦-٣٧.

(١٦) انظر تبيين كذب المفتري / ١٤٧.

(١٧) تبيين كذب المفتري / ١٤٦ ، وانظر مصادر ترجمته التي أشرت إليها سابقاً .

(١٨) أنظر تاريخ بغداد ٣٥٧/١١ والتبيين لابن عساكر / ١٤٢.

(١٩) العبر في خبر من غبر ٢٠٣/٢.

(٢٠) الفهرست لابن النديم ص ٢٥٧.

(٢١) أنظر ترجمة أبي موسى في الطبقات الكبرى لابن سعد ١٦/٦ ، والتهذيب لابن حجر ٣٦٢/٥

(٢٢) أخرجه الحاكم وقال عقبة : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووفقه الذهبي ٣١٣/٢.

(٢٣) أنظر تبيين كذب المفتري /٣٥.

(٢٤) هو الإمام الحافظ محدث البصرة أبو يحيى زكريا بن يحيى بن عبد الرحمن الساجي (ت ٣٠٣) ، انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ ٧٠٩/٢ – والتبيين /٣٥ – وطبقات الشافعية الكبرى ٢٩٩/٣ – وشذرات الذهب ٢٠٥/٢.

(٢٥) هو أبو علي : محمد بن عبد الله بن سلام المعروف بالجبائي (ت ٣٠٣) كان إماماً في علم الكلام ، وأخذ هذا العلم عن أبي يوسف يعقوب بن عبد الله الشحام البصري رئيس المعتزلة بالبصرة وله في مذهب الاعتزال مقالات مشهورة ، وعنه أخذ الأشعري علم الكلام .

(٢٦) تاريخ بغداد ٣٤٦/١١.

(٢٧) تاريخ بغداد ٣٤٧/١١.

(٢٨) وفيات الأعيان ٢٨٤/٣.

(٢٩) شذرات الذهب ٣٠٣/٢.

• حواشي البحث:

(١) شرح النووي - صحيح مسلم - ج ١٢ - ص ٢٣٣

(٢) صحيح البخاري - بدء الخلق - ص ٥٣٢ .

(٣) منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين - ص ٢١ .

(٤) فتاوى ابن تيمية - ج٥ - ص ٥

(٥) مناهج علماء الحديث والسنة - ص ٢٢ .

(٦) {البقرة:٩٧-٩٨}

(٧) الحافظ بن عبد البر - جامع بيان العلم وفضله - ج٢ - ص ١٢٣

(٨) {آل عمران:١-٢}

(٩) مصادر ترجمته :

- الفهرست لابن النديم / ٢٥٧ .
- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣٤٦/١١
- الأنساب للسمعاني ٢٦٦/١
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ٣٣٢٢/٦
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ٨٥/٣
- العبر في خبر من غبر للذهبي ٢٠٢/٢
- طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي ٣٤٧/٣
- البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ١٨٧/١١
- الإعلام للزركلي ٧٩/٥
- دائرة المعارف الإسلامية ٤٣١/٣

وقد أفرد ابن عساكر كتاباً عن الأشعري تكلم فيه عن اسمه ونسبه وحياته وعلمه وثناء الناس عليه وشيوخه وتلاميذه ، كما رد على من طعن فيه وفي نسبه وسمى كتابه : تبيين كذب المفتري فيما نسب على الإمام أبي الحسن الأشعري .

(١٠) الأنساب للسمعاني ٢٦٧/١

(١١) هو أبو علي : الحسن بن علي بن إبراهيم الأهوازي (ت / ٤٤٦) ألف كتاب باسم: مثالب ابن أبي بشر طعن وحمل فيه على الأشعري

(٣٠) طبقات الشافعية الكبرى ٣/٣٥٩.
(٣١) أنظر رسالة إلى أهل الثغر - ص ٤٧.
(٣٢) شذرات الذهب - ج٢ - ص ٣٥٥.
(٣٣) تاريخ بغداد - ٤/٢٨٧.
(٣٤) البداية والنهاية ١١/١٨٧.
(٣٥) وفيات الأعيان ١/٢٦.
(٣٦) وفيات الأعيان ٤/١٨٤ - تبيين كذب المفتري ١٤٧.
(٣٧) تاريخ التراث العربي ص٦.
(٣٨) مقدمة ابن خلدون ص٣٦٣.
(٣٩) مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٤.
(٤٠) منهج علماء الحديث في أصول الدين ص٧٦.
(٤١) صون الكلام والمنطق عن فني الكلام والمنطق ١/٤٢.
(٤٢) صون الكلام والمنطق عن فني الكلام والمنطق ١/٤٢.
(٤٣) نثر الورود ١٨٠.
(٤٤) منهج علماء الحديث في أصول الدين ص ١٢٠-١٢١.
(٤٥) {الإسراء:١٦}.
(٤٦) {الملك:٢}.
(٤٧) ابن ماجة والترمذي.
(٤٨) الملل والنحل ١/٥٩.
(٤٩) {هود:١١٤}.
(٥٠) تبيين كذب المفتري على أبي الحسن الأشعري - ص٣٩.
(٥١) نفس المرجع السابق ص ٣٩.
(٥٢) مواقف ابن تيمية ٢/٤٩٥.
(٥٣) تبيين كذب المفتري ١٣١.
(٥٤) ترتيب المدارك ٥/٢٥.

(٥٥) مواقف ابن تيمية من الأشاعرة ٢/٥٠٠.

(٥٦) المرجع السابق ٢/٥٠١.

(٥٧) الخطط ٢/٣٥٨ ، نقل ذلك عبد الرحمن الصالح في كتابه موقف ابن تيمية من الأشاعرة .

(٥٨) موقف ابن تيمية من الأشاعرة ٢/٥٠٣.

(٥٩) – اللمع – ص١٤ .

(٦٠) – اللمع – ص١٨ .

(٦١) – اللمع – ص٩٦ .

(٦٢) – درء التعارض – ج٧ – ص٣٥٢ .

(٦٣) – فتح الباري – شرح صحيح البخاري – ج١٤ – ٥١٠ .

(٦٤) – موقف ابن تيمية من الأشاعرة – ج٣ – ص١٣٣١ .

(٦٥) – عقيدة السلف في ضوء الكتاب والسنة – ص١٣٤ .

(٦٦) – الإضاءة – ص٣١ .

(٦٧) – سلم المطالع – ص٥٥٢ .

(٦٨) – موقف ابن تيمية من الأشاعرة – ج٣ – ص١٣٣٨ .

(٦٩) {الشُورى:١١}.

(٧٠) {البقرة:٢٥٥}.

(٧١) {سبأ:٣}.

(٧٢) {الأنعام:٥٩}.

(٧٣) {لقمان:٢٧}.

(٧٤) {الملك:١٤}.

(٧٥) {الشُورى:٥٣}.

(٧٦) {النساء:٤٨}.

(٧٧) {القيامة: ٢٢– ٢٣}.

(٧٨) {المؤمنون ١٠٢–١٠٣}.

(٧٩) {الانشقاق ٧-١٢ }.

(٨٠) {البقرة:١٧٨}.

(٨١) {الحجرات:٩}.

(٨٢) {إبراهيم:٢٧}.

(٨٣) {الحشر:١٠}.

(٨٤) الإبانة ص ١٥-١٦.

(٨٥) رسالة إلى أهل الثغر ص ١١١.

(٨٦) مقالات الإسلاميين ص١٨٦.

(٨٧) إتحاف سادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين ٢/٤.

(٨٨) القواعد المثلى في أسماء الله الحسنى ص١٢٤.

(٨٩) عقيدة السلف في ضوء الكتاب والسنة ص٨٨.

(٩٠) الإبانة ص١٦.

(٩١) رسالة الثغر ص٢١٦.

(٩٢) أخرجه ابن حنبل في المسند ٨١/٤.

(٩٣) نونية ابن القيم ص ٢٣٦.

(٩٤) صحيح البخاري - كتاب بدء الخلق.

(٩٥) {القيامة: ٢٢- ٢٣}.

(٩٦) تبيين كذب المفتري / ١٣١.

(٩٧) تبيين كذب المفتري ١٣١.

(٩٨) تبيين كذب المفتري ١٣٣.

(٩٩) تبيين كذب المفتري ١٣٣.

(١٠٠) تبيين كذب المفتري ١٣٤.

(١٠١) مقدمة عبد الله شاكر - تحقيق رسالة إلى أهل الثغر - ص ٥٧.

• **ثبت المصادر والمراجع :**

أولاً : القرآن الكريم

ثانياً : الحديث الشريف :

١- صحيح البخاري – مطبعة دار السلام – الرياض ط٢، ١٩٩٩م .
٢- صحيح مسلم – نشر إدارات البحوث العليمة والإفتاء – الرياض .
٣- سنن أبي داود – ط١، ١٩٨٨م .
٤- سنن ابن ماجة – مطبعة الحلبي .
٥- فتح الباري بشرح صحيح البخاري – ابن حجر – ط١، ١٩٨٧م – دار الريان – القاهرة .
٦- شرح مسلم للنووي – المطبعة المصرية .
٧- مسند الإمام أحمد – دار الكتاب العربي – بيروت

ثالثاً : العقيدة والفرق :

١- اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع – الأشعري – دار الكتب العلمية – بيروت – ط١، ٢٠٠٠م .
٢- الإبانة عن أصول الديانة – الأشعري – دار الكتب العلمية – ط٢، ٢٠٠٥م .
٣- مقالات الإسلاميين للأشعري – ط٢ – ١٣٨٩هـ . مكتبة النهضة المصرية .
٤- رسالة إلى أهل الثغر – مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة – ط٢ – ٢٠٠٢م .
٥- نشأة الأشعري وتطورها – جلال محمد – ط١، ١٩٧٥م – دار الكتاب اللبناني – بيروت .

٦- منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين - مصطفى حلمي - دار ابن الجوزي - القاهرة - ط١، ٢٠٠٥م .
٧- الكافية الشافية لابن القيم - دار عالم الفوائد - ط١، ١٤٢٨هـ
٨- القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى العثيمين - ط١، ١٩٩٦م - مكتبة أضواء السلف - الرياض .
٩- موقف ابن تيمية من الأشاعرة - عبد الرحمن صالح .
١٠- درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، ط١ - ١٩٨١ جامعة ابن سعود.
١١- موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول جامعة ابن سعود الإسلامية .
١٢- مجموع الفتاوى لابن تيمية .
١٣- الفصل في الملل والأهواء والنحل، ط٢ ١٣٩٥ - دار المعرفة
١٤- صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام، دار الكتب العلمية - بيروت .
١٥- مناهج البحث عند مفري المسلمين لسامي النشار، ط٢ - القاهرة .

رابعاً : التاريخ والأعلام :

١- مقدمة ابن خلدون - دار الكتب العلمية - ط٩، ٢٠٠٦ - بيروت .
٢- تاريخ بغداد - للخطيب البغدادي - الكتاب العربي - بيروت .
٣- وفيات الأعيان لان خلكان، دار بيروت - ١٣٩٧هـ .
٤- العبر في خبر من غبر - الذهبي - دار النشر - الكويت - ١٩٦٠م .
٥- الأعلام للزركلي - ط٣، ١٣٨٩هـ .
٦- الأنساب للسمعاني - ط١ - دائرة المعرفة - الهند .
٧- طبقات الشافعية - للسبكي - ط١، ١٣٨٤هـ .

٨- البداية والنهاية لابن كثير – ط٣، ١٩٧٧م – مكتبة المعارف – بيروت.
٩- تبيين كذب المفتري على أبي الحسين الأشعري – لابن عساكر – ط٢، ١٣٩٥هـ – دار المعرفة .
١٠- تاريخ التراث العربي – فؤاد سزكين – جامعة محمد بن سعود الإسلامية – ط٢، ١٣٨٩هـ – المدينة المنورة .

خامساً : الأصول :

١- سلم المطالع – شرح الكوكب الساطع – محمد الحسن ولد أحمد الخديم – ط١ – ١٩٩٨م .
٢- نثر الورود شرح مراقي السعود – لمحمد الأمين الشنقيطي – ط١ – بيروت .